

الإبداع الأدبي

الأعمال المتكاملة

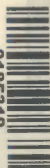
يحيى الرخاوى



ورطة قلم

المدرسة

0185319



Bibliotheca Alexandrina

يحيى الرخاوى

ورطة قلم

• المقال القصص

• قصة فى قطار!!



الطبعة الأولى ٢٠٠٠
جميع حقوق الطبع محفوظة

الغلاف

لصبيبات
حسام
هویدی

لوحة الغلاف

"لقطة مقربة"،

لى إيستمآن، ١٩٦١.

زيتية. ٢٧ X ٧٠ بوصة.

متحف المتروبوليتان للفنون،

نيويورك.



مركز المحروسة

٤ شارع ٩ - المعادى

ت: ٣٧٥٢٠٣٣

ورطة قلم

إهداء
إلى عبد السلام المحجوب

لماذا الأعمال المتكاملة ؟

عجزت أداة واحدة أن تستوعب "القول الثقيل" الذى حملتنى إياه رؤيتى. من خلال الجدل الحى بين ذاتى ومرضى ودينائى. فلجأت إلى كل ما أتيج لى من أنغام وأشكال. لكننى لم أكتب إلا مسودات. لذلك كنت أنوى أن يكون العنوان "الأعمال الناقصة" وخاصة أن ترجمة *Collected papers* أو *Collected works* هى "مجموعة أعمال" أو "مجموعة أوراق" فلان. وليس الأعمال الكاملة. الأمر الذى لا ينبغي أن يسمى كذلك أو ينشر بهذا الاسم. إلا بعد أن يكف صاحبها عن العطاء. أو عن الحياة.

ثم قبل ذلك وبعد ذلك: هل يكتمل شيء أبدا؟
وحين أن أوان الحسم. قررت أن تخرج كل المحاولات كما وصلت إليه. ولتكتمل بعد أو تتكامل مع غيرها.
فكان هذا العنوان "الأعمال المتكاملة" أملا فى أن يكون جماع المحاولات هو "توجه ضام. حول محور ما".

يحيى الرضاوى

مقدمة

حين قررتُ الظهور بعد أن اقتربت الساعة، جمعت قصصى القصيرة التي نُشرت والتي لم تنشر، فوجدت بينها قصصا أشبه بالمقال. كما نظرت فى بعض مقالاتى فوجدتها مقالات أشبه بالصور القصصية. فجعلت منها الجزء الثانى وسميتها باسم آخر ما كتبت من هذا النوع من الكتابة ' اللعبة والملعوب'، (مجلة سطور عدد ٤٠ مارس ٢٠٠٠) وهى المحاولة التى جربت فيها التناوب بين غلبة النصفين الكرويين، حيث نشرت فى صورتها التقليدية بعنوان " ماذا بعد أن لبنا معا لعبة الألفية الأهرام فى: ١٨/١/٢٠٠٠ (التي أوردتها فى الهامش)، ثم جمعت إلى هذا الجزء ما شابهه مما سبق نشره.

أما الجزء الأول ففيه شهادة كاتب يمارس النقد أحيانا ، قدّمها وهو يمر بتجربة كتابة قصة طوي، أو رواية قصيرة فى وقت محدد، كنوع من التجريب التأملى المتوازى مع فعل الإبداع

فلعل هذا العمل بجزئيه يمثل عرض جانب من ممارسة خاصة لفعل الإبداع أكثر من دلالة محتواه.

الجزء الأول

شهادة في قصة

ليست قصيرة!!

الورطة

(١)
"قصة في قطار"

على المقهى الذى فى ميدان سيدى جابر، بعد شريط الترام وأنت ذاهب نحو المحطة توجد قهوة كبيرة ماسكة ناصيتين، جلس على الرصيف فى الظل ووجهته ناحية الترام، لا ناحية المحطة، مع أنه فى المرة السابقة كان يجلس ووجهه للمحطة، وراح ينظر إلى ناحية القطار كل قليل، وكأنه سيراه وهو قادم فيجربى ليلحق به بدا وكأنه لم يصله خبر أن الأمور تغيرت، وأن قطارات هذه الأيام لا تحتاج إلى الحدس ومباريات الجرى، كله تمام بالدقيقة، شئ فرنساوى، وشئ توربينو، وشئ أسباني، مصلحة السكك الحديد المتحدة، ثم إنه لما تجول المرة التى فانت اكتشف منطقة لم يكن قد تجول فيها من قبل، توجد هذه المنطقة على الناصية المقابلة، الناحية الثانية من شريط الترام، مطعم صغير أمامه شواية الفراخ بروائحها التى هى، هذه أيامها بعد حكاية جنون البقر، ثم فرن جميل نظيف تتصاعد منه رائحة الطزاجة الدافئة. هو يحب الخبز هكذا دون غموس (الخبز الحاف)، فى جولة سريعة المرة السابقة، تعرف على المكان وكأنه مسافر إلى الخارج يكتشف حوارى بلد متوسط على الطريق - مثلاً - من تركيا إلى اليونان، هذه المرة لف نفس اللغة وكأنه يتأكد أنه قد أصبح له حق مواطنة وطن جديد اسمه "سيدى جابر" لا يحتاج الأمر إلى دخوله أية إجراءات أو تأشيرات، شوارع ضيقة نسبياً، وعمارات متوسطة قديمة منتصبة فى ثقة وهى تتحاور فى همس، ومحلات بسيطة ونظيفة وصغيرة، وانحناءات غير متوقعة، ثم إنه عرف كيف يوحّد الاتجاه رغم الانحناءات التى تصل إلى الزاوية الحادة، يسار فى يسار فى يسار تجد نفسك ثانية على شريط الترام أمام بورصة كذا (لم يعد يهتم بالأسماء بعد أن تكرر نسيانها) والبورصة - كما خيل إليه فى لغة الإسكندرانية - تعنى القهوة، ناس يجلسون مع

بعضهم البعض، ناس بحق وحقيق، لا ينتظرون القطار، أى قطار، فقط يجلسون ويتصايحون ويلعبون ويتكلمون ويضحكون، والله زمان، هو ليس من رواد المقاهى أصلاً، وقته لا يسمح، ومع ذلك، والله زمان، كله من هذه السيارات، وخاصةً هذه السيارة الأخيرة ذات المقعدين، فصلته عن الناس، كيف يمكن أن يتربى الأولاد بلا احتكاكات فى الأتوبيس، وبلا بحث عن الفكّة فى جيوبهم ثم حوار مع المحصلّ يعنى ("الكمسارى")! وكان قد تعمّد، بعد أن كبر الأولاد واستقلّوا، شراء هذه السيارة الشبابى لا ادعاءً للشباب وإنما تجنّباً أن يركّب أحداً معه، سواء من أولاده أو من المارة الذين يشيرون بأيديهم أحياناً فيخجل هو من المقاعد الخالية، ومع ذلك لا يقف لهم، وأيضا هو نجح أن يقاوم إلحاح أولاده وزوجته أن يوظف سائقاً خاصاً يليق بدخله ويوفر وقته. نفوده القادرة على تعيين سائق خاص كادت تحرمه حتى من الاختلاء بنفسه فى السيارة وهو يستمع إلى إذاعات لندن والإذاعات الأخرى التى تكرّها زوجته، فهى تعتقد أنها إذاعات متخصصة فى نشرات الأخبار المليئة بالقتل والغم والحوادث، هذه السيارة، كل السيارات، أصبحت حاجزاً فوق الحواجز بينه وبين الناس، ومع ذلك فهو يحب هذه السيارة حبا جما رغم كل شىء، "اثنتين صُحبة، ثلاثة زحمة"، قول "خواجاتى" سخيف، أثناء جولته هذه المرّة وقف أمام الدكان الصغير على ناصية أحد الانحناءات الحادة، أمام الدكان ثلاجة بها "آيس كريم"، فتحها وتناول منها قمع البسكويت الذى يحبه رغم قشرة الشيكولاته التى لا يحبها، دولسيكا بالبسكويت، هو لا يحب البوظة أم عصا، أصبح قمع الدولسيكا بجنيه، هذا هو الشىء الذى استطاع أن يتابع أسعاره فى السنوات الأخيرة، ٣٥ قرشاً، ثم ٥٠ قرشاً، ثم ٦٥ قرشاً، ثم هُبّ قفزة إلى الجنيه الصحيح، إنه لا يشتري - شخصياً - شيئاً بنفسه، وهو لا

يحتاج إلى شيء، وبالتالي لا يعرف إلى أين وصلت الأسعار هذه الأيام، ثم إنه لمح كراريس على الرف الداخلى للمحل، هذه أيضا من الأشياء التى كان يشتريها من سنوات قبل حكاية الكمبيوتر، أرخص كرأسية لو سمحت، متوسطة، ورق أى كلام لو سمحت، غلاف عادى لو سمحت، ما الحكاية؟ لو سمحت لو سمحت لو سمحت، المهم، اشترى الكراسية، لماذا اشترى الكراسية؟ هذا أمر فى علم الغيب حتى هذه اللحظة، اشتراها بجنيه أيضا؟ نفس ثمن الآيس كريم، ثم إنه فرح فرحاً مناسباً، بغير سبب ظاهر، الكراسية بجنيه والـ"جىلاتى" بجنيه، مثل زمان، نومة بلميم، وعسلياية بلميم، وقرطاس لب بلميم، وتتبقى نكلة، والكراسية (زمان) ٣٢ صفحة كنظام وزارة المعارف العمومية بنكلة، أو تعريفه حسب الورق، هو لا يجب تذكر الماضى بحنين خاص، ولكنه لا يستطيع أن يحول دون الشعور بهذا الحنين الخاص رغم اختلاطه بمشاعر متداخلة من المذلة والضعف والحيرة والوحدة، نعم والوحدة، منذ هذه السن المبكرة، انقطعت علاقته بالتسوق تقريباً فيما عدا هذه الـ"بولسيكا" وبعض الكشاكيل التى توقف عن شرائها بسبب صديقه الجديد، الحاسوب، ما أسخف الاسم، هو الكمبيوتر وخلص، فحتى أسعار الكراريس والكشاكيل توقف عن تتبعها، وهو قد اكتفى بإعطاء زوجته مبالغ أكثر من المطلوب حتى يوفر على نفسه الشكوى من الأسعار، ومع ذلك فهى لا تكف عن تذكرته، وهو يزوغ، وهى لا تكف، "قيم تتكلم إذن إذا لم تتكلم فى الأسعار"، يا بى ستى خلّ الهم لأصحابه، نحن قادرون والحمد لله، فتنبى زوجته تحاول أن تفهمه أنها تتكلم من أجل المهمومين، هكذا مرة واحدة؟ طيب كيف؟ "إن كثرة الكلام عنهم تجعلنا ننساهم، أعنى قد جعلنا ننساهم. نعم؟ نعم؟ خلاص، لا أقصد، بل تقصد. أستمغفر الله العظيم، آخر كشكول اشتراه كان بعدة جنيهات، أغلى

من روايات نجيب محفوظ، كان كبيراً ومرسوماً عليه صورة ولد من الأولاد المغنيين أو الراقصين (لم يعد هناك فرق)، وحين طلب غلافاً بسادة لم يجد، فاكتمى بغلاف عليه ميكي ماوس، مع أنه يحب أكثر أن يرقص ويجري، وزوجته تواصل الحديث عن الأسعار، وهو لا يستطيع أن يجد ربوداً مناسبة كل مرة، وهذه المرة الأخيرة اكتفى بأن يزوم وهو يهز رأسه، فتمادت ظانّة أنه فهم ويتابع، فيتمتم، فتتمادى، فيزوم مرة أخرى بطريقة أخرى، فتتمادى وهى تحدّثه عن الناس المساكين جداً، وتبدى من أنواع الشفقة ما لا يجوز، وهى تؤكد أن الحديث عن الجوعى والمساكين هو مسئولية كل متحدث، وذلك حتى لا ننساهم، يا حرام. كذا؟. وهكذا تلقى عن كاهلك كل شيء بمجرد أن تحكيه، هذا رأيي. يا سبحان الله، نحن نخفضّ الأسعار بالكلام، نبني مساكن للشباب بالكلام، ونروى لهم الأفدنة الصحراوية التى ضحكنا عليهم بها فتاجروا فيها ما دامت بدون ماء، بالكلام، يبدو أن الكلام مهم جداً فعلاً!! ماشى، كلام الناس هو الرأى العام؟ الرأى ماذا ولا مؤاخذه؟. الرأى العام: يعنى الرأى العام، ماذا فى هذا؟. ألم نتفق على التوقف عن المعايير، وفارس ما لبوروينظر إليه من الإعلان الكبير الموجود على حائط العمارة المقابلة، والله هذا الفارس أرحم من تلك الراقصة على غلاف الكشكول اياه، على الأقل هو فارس يذكرنا بشهامة موقف الفرسان الذين لا يطعنون فى الخلف، ثم إن هذا الفارس بالذات يوصيك بالنكته، حلوة النكته هذه، وهو لم يعد يدخّن من أصله، فلماذا اشترى الكراس؟ وما علاقة هذا بذاك؟. عجيبة. عموماً هو طالع فى مقدّر جديد، منذ قرر أن يستقل القطار ذهاباً وإياباً إلى الإسكندرية التى يحبها جداً، يحبّها أكثر مما يحبها إنبارد الخراط وطبعاً أكثر من يوسف شاهين، من أين له أن يعرف؟. من فرط حبه لها، لا يوجد أكثر من هذا، فراح يستعيد أشياء صغيرة رائعة كان قد

هجرتها بسبب الثراء والعربات والجري وراء الجري، وراء الجري، وراء الجري، وراء ... (كفى- الله!!)، لكن هذه الكراس التي اشتراها بغير قصد تحل في وقت غير مناسب، وكأنها تريد أن تستفرد به بعيدا عن غريمها الكمبيوتر، ذلك الصديق الجديد العظيم القادر النذل، قال اسمه الحاسوب قال!! يستأهل هذا الاسم بدلا من الكمبيوتر ما دام هو بكل هذه النذالة، لكنه مع نذالته صديق، حين تصادق نذلا وأنت تعرف ذلك لا يحبطك تخليّه أو تصدمك أنانيته، فتطول الصداقة، وقد حال هذا الكمبيوتر بينه وبين أصحابه القدامى مثل أقلام الحبر الجاف المتعددة الألوان الرقيقة السن جدا، وكافة أنواع الكرايس، ولكنه ظل محتفظا بصداقة الأقلام الرصاص والأساتيك (جمع أستيكة لأنني لم أعرف جمع ممحاة، هل هو ممحايات أم مَمَاح)، هذا الصديق النذل (الحاسوب) شفاه من عشق القلم والورق معاً، واختصت الأقلام الرصاص بشخبطة الكتب التي يقرؤها، الكمبيوتر صديق حقيقي له حضور، يلقي عليه تحية الصباح، وأحيانا يضغط على زرّه وهو ذاهب إلى بورة المياه ليسمع زنة الفتح الرقيقة، ثم يفلقه بون أن يعمل عليه بعد أن ينظر في شاشته الفضية بحنان، ومع ذلك فهو صديق نذل أيضا، وإن أقول لكم لماذا! مقالبه يحتملها بكل صبر، مع أنها أحيانا تكون باردة وغادرة، يعاتبه، أو يعاقبه، أحيانا بأن يرفض أن يغطيه بغطائه وهو خارج بعيدا عنه، كما أنه إذا غضب منه، أو عليه، لا يمسح عنه التراب ولا يربت عليه حين يبدأ العمل، نفس الشكوى كانت تشكو منها زوجته، فهو لم يملس على شعرها إلا مرّات قليلة في استجابة غير عفوية لمطلب غامض أشبه بالشروط السرية في معاهدة استسلام، أشياء كثيرة صغيرة شديدة الأهمية في الأنس والمداعبة، لم يتعلم منذ الصغر كيف يتقنها، مع أنه على يقين من أنها ضرورية، وأنها أهم من

الأشياء الكبيرة التي لا يتقنها أيضاً، يعتذر لابن حزم بكل خجل لعجزه عن الألفة والإيلاف، لماذا أسمى كتابه "طوق الحمامة؟. الرقة لا تباع ولا تشتري يا أخي، يشفق على زوجته بقسوه ويتساءل: لم قبلته ما دام هو هكذا ؟ ظلمت نفسها هذه السيدة .

- تمسح يا بيه؟.

والله زمان.

زمان، كانت الكرايس وحدها هي التي "كنظام"، وهو لم يعرف أبدا ما هو نظام وزارة المعارف العمومية التي تحنو حذوها هذه الكرايس، وكان يتصور أنه إذا اشترى كراسة مكتوباً عليها "وزارة المعارف العمومية" من غير "كنظام"، فإنها في الأغلب ستكون مغشوشة؛ فالأصل في الكرايس أنها كنظام، أما تلك الكرايس بدون "كنظام" فلا أحد يعرفها، تأكد من ذلك وهو يقرأ مثل أفلاطون يبدو أنه كان عنده حق حين نبه أنه حتى السرير ليس إلا "كنظام" السرير الذي هو "فوق"، في عالم مثل سيدنا أفلاطون بالصلاة على النبي، حلوة حكاية السرير هذه (٢). كل شيء الآن أصبح "كنظام" وخصوصا الكمبيوتر ولكنهم قلبوا كلمة كنظام إلى "كومباتيبل"، السابق الذي حققته جمهورية مصر العربية هي أنها نجحت أن تعيش بدون نظام أصلاً، وهذا شيء مصرى شديد الخصوصية، فكل شيء يسير بنجاح غامض الأسباب في هذا البلد العجيب، لا أحد يجوع فعلاً، ولا أحد يثور، ولا أحد يتعلم، ولا أحد يأخذها جداً، وكله ماشى؛ فالقطارات تأتي في مواعيدها، والمجاري تجري في مجاريها، والجسور تمتد إلى غايتها فتزداد البلد ازدهاماً من باب البركة، معجزة هذه والله العظيم، قوانين هذا الشعب لم تُكتشف بعد.

- شكراً يا ابني شكراً، لا، شكراً.

قدّر أنه لو وافقه فإن القطار قد يفوته مع أنه مازالت أمامه عشرون دقيقة، والمسافة بين مقعده في القهوة - كما قاسها المرة الماضية - وعتبة القطار هي دقيقتان وعشرون ثانية، ياسلام! ما كل هذه الدقة؟ ثم من أدراه؟ - ثارت هواجسه وهذا جزء من طبعه السرى - من أدراه أن هذا الفتى سيأخذ الحذاء ويرجعه، تبقى فضيحة أن يذهب إلى القطار بالجورب. زمان (تانى؟!) كان ماسح الأحذية يمسح الحذاء وأنت لابسه، وهات يا كلام وبود من هنا وهناك، كان له دور مسامر لطيف، أخف دما من الحلاق، لماذا يتقن ماسح الأحذية الحديث ويتقن فيه أكثر من أى حلاق؛ ربما لأنه يجلس مستريحا على الأرض وهو يحكى، رأيت كيف يؤثر وضع الجسد في السلوك و التفكير يا أخى، سبحان الله، الآن ماسح الأحذية يخلع عنك حذاءك، يضع تحت قدميك ورقة كارتون مليئة بالألوان المختلفة لكنها جافة لا تصبغ جوربك، اطمئن، ومن لم يعتد مثل هذا التخلّى عن حذائه ولو بشروط معلنة مسبقا، لا يمكن أن يطمئن إن كان حذائه سيرجع له أم لا، طبعاً هذا كلام فارغ، فلا بد أن صاحب القهوة والعمال بها يعرفون هذا الفتى ماسح الأحذية، وإلا لما سمحوا له.

- لا يا ابنى، قلت شكرا، أكثر الله خيرك.

نظر إلى الكراس الجديد وهو قابع على المنضدة، لم يكن قد وضعه بعد في الحقيبة الوحيدة الخفيفة التى يحملها، لماذا اشتراه؟ وماذا يمكن أن يفعل به؟ اشترى معه قلماً جافاً، رينولدز الفرنسى الصنع، حتى الأقلام نستوردها، راح الكراس يقول شيئاً همساً، حنين قديم، أشبه بالعتاب، لا مشاكل (تعبير مستورد جديد لن أقوله لك بالإنجليزية) جلد الكراس خشن، وله رائحة مثل رائحة ورق اللحم، ترى هل مازالوا يبيعون اللحم فى ورق أثقل من وزن اللحم؟. جلدة الكراس عليها نقوش غامضة كان لونها ينوى أن يكون "بمبياً" ثم

عدّل، كان الغلاف زمان (كل حاجة زمان زمان؟. هذا الأسلوب هو من علامات الكهولة، وهو ليس كهلا بعد، والمصحف ليس كهلا)، ظهر الغلاف كان مدرسة نصائحية متحركة، دمّها خفيف، ولا أحد يطالبك بتنفيذها على أرض الواقع، قارنَ ما كان يكتب على ظهر الكراس مثل: "اغسل يديك قبل الأكل وبعده" أو "لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد"، بتلك الفتاوى التى يطلقها هذا الطبيب النفسى جدا فى التلفزيون إثر سؤال مشكل، تذكر وهو بيتسم كيف كان يقول لا فضّ فوه، دون أى تردد أو تفكير أصلا: إن الأبحاث الأحدث أثبتت أنه على "الأم أن تحب ابنها"، أما الأبحاث الأكثر حداثة فهى تؤكد أن "الطالب وهو يذاكر لابد أن يركز؛ لأن هذا من أهم الوظائف النفسية للعقل البشرى"!!!، الله يخرب بيوتكم، لم يسارع إلى الاستجابة للنصيحة غير المكتوبة على ظهر هذا الكراس الحديث الذى لم يصادقه بعد، راح ينظر فى حقيبته فلمح ما كان مصدرا آخر للغيط، ذلك أنه كان قد أخذ معه رواية جديدة اسمها عطلة رضوان، ومؤلفها اسمه عبده جبير، مؤلف يسمع عنه كل خير واجتهاد، وقد قرأ هو هذه الرواية بإصرار لا مثيل له، ثم قال لنفسه بالعافية، إنها رواية رائعة وتغيظ، أقولها بملء فمى حتى لا يزعل، ولكننى متأكد أن المؤلف حين يبلغه ذلك، إذا بلغه، سوف يتذكر كلمة تغيظ ولن يتذكر كلمة رائعة، كان ما يغيظه زمان أن يحل محل النصائح خفيفة الظل على ظهر بعض الكراسات جدول الضرب الصغير والكبير بأرقامهما المزدحمة وبينهما خط مائل لا يفرض الاشتباك، أما جدول الضرب الصغير فنحن نحفظه عن ظهر قلب فما لزومه، أما جدول الضرب الكبير فهذا هو التحدى الرائع الذى يغيظ غيظا أقل من غيظه من عطلة رضوان $12 \times 12 = 144$ ، $12 \times 13 = 156$ ، لا لا لا، إلا هذا، وهم يعرفون تماما أن أحدا لن يتخطى هذين الرقمين، فلماذا يشغلون نصف ظهر

الكراس بهذه الأرقام مثل أرقام الميزانية فى مجلس الشعب، قال ماذا؟ زيادة الدخل القومى، والألغن أن الولايات المتحدة الأمريكية مدينة لا أدري بكم تريليون دولار، يا صلاة النبى، مدينة لمن؟ لا تدري. كلام، رغم حيكته ،يضحكون به على الناس ويغبطونهم فى نفس الوقت مثل عطلة رضوان، ومثل جدول الضرب الكبير ثم يكملون عليهم بقصيدة النثر، والذي يشتم إنما يشتم نفسه، هكذا كنا نوقف مباراة التراشق بالسباب أطفالاً، "كل ما تقوله على الآن هو عليك يا سعيد يونس يا غراب الآن، هيه !!"، فيتوقف سعيد يونس غراب خوفاً من التورط فى سب نفسه، المفروض أن الأدباء ناس طيبون، وعليهم أن يرحموا الناس من جدول الضرب الكبير، ومن ديون أمريكا ولا مؤاخذه، أما أن يأتوا بكل قسوة وإخلاص ليكملوا على ما تبقى لنا من منطق وأمل بقصيدة النثر هذه، فالله يسامحهم، أنا ما زلت أرجح طيببتهم، لذلك فأننا واثق كل الثقة (أقول كل الثقة) من أنهم سوف يرحموننا فى يوم من الأيام، الله يخليهم، استعراض عضلات هو؟ تناصّ طبعاً، هو يعلم مدى تواضع معلوماته وفقر أبجديته الخاصة بهذا التخصص، موقفه محدد ومتواضع من البداية، مثل موقفه قديماً من جدول الضرب الكبير، كان منظر هذا الجدول قيمة، لكن هو ماله هو؟ للمليك اهتفوا، يا نسور الحمى، للمليك اهتفوا، دائماً دائماً زه، فه، ته، به، زفتى زفتى زفتى، لا لم تكن أياماً سعيدة كما تحاول أن تثبت لنا سامية الإتربى ويحى تادرس، كانت أياماً فقط، حكايات المقاهى هذه (فصّحتها بالقصد)، ليست هى، رغم أنها مليئة بالحكايات التى هى، ملائنة آهات، ودموع وأنين، الله يرحمك يا ست، يعنى، بلا زمان بلا كلام فارغ، من يرد أن يعيش يعيش الآن، ومن لا يعجبه يذهب إلى زمان ويريحنا، حتى الآثار، سواء فى مصر أو أثناء الترحال، لا يحب أن يزورها، إنه لم يزر المتحف المصرى

حتى الآن، أى والله العظيم، يخشى ألا يستطيع أن يتحمل مسئولية تاريخه إذا رآه رأى العين، يخشى أن تقوم المومياء التى كانت أم نجيب محفوظ لا تكل من زيارتها وهى تصحبه معها طفلاً، يخشى إن زار هو هذه المومياء إذا زارها ووقف قبالتها أن تلتقط عدم احترامه لمن حنطها، فتخرج له لسانها، أو قد يكتشف - ليس يدري كيف - أن توت عنخ آمون كان شاذاً جنسياً، أو أن يرصهم له رمسيس الثانى أربعة أربعة، يعايره، وقد يحاكمه، مع أنه غير مسئول عن هزيمة ١٩٦٧ إلا بقدر فرحته وهو فى سنة تانية جامعة بالحركة المباركة، لو كان يعرف أنهم سوف يجرسونا هكذا بعد ١٥ عاما لمنع نفسه من ذلك الفرح حتما، هل يستطيع الآن بعد كل هذا العمر، وما جرى، وما يجرى أن يتراجع عن فرحته تلك حتى يعفى نفسه من مسئولية الهزيمة، لا عامر ولا الغول، عبد الناصر المسئول، بيان ٣٠ مارس، وحسنين هيكल فجأة يكف عن ذكر عبد الناصر ونشر صورته فى الأهرام استعدادا للقادم الجديد، خييك الله يا زكريا يا بن محبى الدين، لماذا لم تلق بيانك من فورك وتأمر بالقبض عليه لمحاكمته، وقد تثبت براءته، وقد تحدد مسئوليته بحجمها لا أكثر، وقد يكون فى ذلك بداية كلام آخر، وتاريخ آخر، كل شئ يُنسى بعد حين. لا أبدا، كلام فارغ، مازال طعم مرارة الهزيمة، وقبضة القلب تعاوده بعد ثلاثين عاما بالتامام كلما ذكر صوت أحمد سعيد. ثم إنه يرفض نغمة "العديد" هذه بكل ما أوتى من عقل وحزم، ولكن بلا فائدة، مسئول غير مسئول هو ماله، ما جرى جرى يا أخى، المصيبة أن ما جرى يجرى، ما زال يجرى، لم يمض نصر ٧٣ مرارة الهزيمة، مع أنه كان نصرا بجد، إلا قليلا، ملعون أبو الثغرة، فيها ماذا؟ العبرة بالخاتمة، وهى زين والحمد لله على الرغم من قول الحاقدين أنه باع النصر، قال يعنى هم الذين اشتروه !!! كيف اجتمع طعم النشوة المنعشة بالنصر

مع طعم المرارة الخبيث دون أن يمحو الأول الآخر؟ هذا شىء، وهذا شىء. . الذاكرة المصرية لها قوانينها الخاصة مثل اقتصاد الشعب المصرى وتاريخه.

- قرعة من فضلك، سكر كثير لو سمحت.

هو يشرب القهوة سادة، مزاج ، ليس بسبب مرض السكرى المصاب به كل أفراد عائلته، إلا هو ، إيش عرفه ؟ لطعم البن مرارة جميلة فكيف يلغياها بمذاق السكر، ثم إنه يرفض أن يحلل، نعم : كل عائلته عندهم هذ المرض ، لكنه لن يحلل، هو حر، الله !!. من عاش بالحكمة مات بالمرض، مثلُ سخيـف وكاذب، كثير من الأمثال تقوم بعمليات تبرير ألطف وأنقـه من بيانات الحكومة كل عام، لقد توقف عن شرب القهوة مؤخراً بدون أى سبب، هكذا والسلام، مرّت عليه تجارب كثيرة من هذا النوع لم يجد لها تفسيراً، شىء يعملـه لمدة سنوات طويلة، وفجأة ينظر إليه من بعيد، ويسأل نفسه، ماذا لو كفت عنه؟. ويكف، وهو الكففان، المنضدة أمامه تغريه، والكراس تناديه فى همس به دلال كان قد نسيه حتى أنكره، والقلم جاهز. وهو لم يقرر أبداً أن يكف عن كتابة القصة، لكنه كفّ، كفّ دون قرار.

والله فكرة.

لماذا لا يكتب قصة قصيرة ممطوطة؟. يجربُ فيها نفسه، قصة ممطوطة بطول الطريق بالضبط؟ يعنى على شرط أن تنتهى قبل وصوله إلى القاهرة، هو لم يكتب إلا الرواية الوحيدة إياها، ثم راح يرسم قصصاً فى صفحة أو صفحتين هى أقرب إلى الصور الذاتية المحسومة (لا يعرف لماذا استعمل كلمة محسومة هنا بالذات، ثم إنه أبى أن يشطبها فى المراجعة كما تلاحظ). فليكتب هذه القصة الجديدة احتفاءً بالكراس الجديد، ونكاية بالصديق الحاسوب الطيب

النذل القابع في حجرته ينتظره في لهفة، وابتسم وكأنه يبتسم لأحد، ثم اتسعت ابتسامته، هل هو أقل من هذا المسئول الكبير الذي ينشرون له هذه الأيام قصصا كتبها في سن التاسعة عشرة (هو الذي يقول) في صحيفة واسعة الانتشار لها طبعة دولية، لقد ظلوا يلاحقونا بها أسابيع متتالية دون حياء. اتسعت ابتسامته رغم الملاحظة حتى كاد يضحك، نظر حوله خوفاً من أن يكون قد ضحك فعلاً بصوت عال، ولكن ما الذي أضحكه، أقول لكم:

فقد حاول أن يلخص ثلاث قصص من قصص أوراق هذا المسئول الكبير، مع أنه لم يستطع أن يقرأ إلا قصتين وربع قصة بالعافية، ومع ذلك فقد صرح مصدر مسئول (مصدر ثقافى إعلامى يتحدث شبه رسمى مجهول الاسم) أن هذه الصحيفة الكبرى سوف تجمع هذه القصص في كتاب يصدر قريباً، أى والده. وفيها ماذا؟ بطولوا حقد، سوف أوجز لكم ثلاث قصص ولتحكموا بأنفسكم.

أما القصة الأولى فهي أن "واحداً أحب واحدة، ثم تقدم لأهلها ليتزوجها، فلم يرضوا به، فزعل".

انتهت القصة الأولى.

أما القصة الثانية فهي أن "الواحدة هذه المرة هي التي أحبت الواحد، ولم تتزوجه أيضاً فزعلت جداً جداً جداً".

انتهت القصة الثانية.

وابتسم ابتسامة أخرى غير الابتسامة الأولى التي زرَّ عليه فيها الضحك: ذلك أن الابتسامة الثانية كانت مثل ابتسامة النقاد الذين يريدون أن يجاملوا بعض الأصدقاء، ولا مانع، لأن المجاملة هذه من أساسيات التلحين ... حسب كلام د. حسن وجيه^(٢)، من باب التلحين الاجتماعي^(٣) والنقد معا، ترجم ابتسامته النقدية الثانية إلى ما يلي:

إن القصة الأولى ليست تكراراً بحال (شفت بحال هذه؟) للقصة الثانية، صحيح أن تبادل الأنوار لم يفرق كثيراً حيث توحدت النهاية (خل بالك أيضاً من توحدت)، ذلك لأن الواحدة التي أحبت الواحد فى القصة الثانية لم تتزوج هذا الواحد لأن أهله رفضوا (مقابل رفض أهل الواحدة التى فى القصة الأولى) ولا لأن أهلها هى هم الذين رفضوا، ولكنها لم تتزوجه لأنه ببساطة - لم يتقدم لأهلها أصلاً، ولم يكن من المعقول فى تلك الأيام (أيام أن كان المسئول الكبير عنده ١٩ سنة) أن تتقدم هى لخطبته، وهذا هو سبب عدم الزواج، ثم لاحظ - سيدى - أن الواحد فى القصة الأولى زعل فقط، أما فى القصة الثانية فالواحدة زعلت جداً جداً (ثلاث مرّات لا مرتين ولا واحدة ولا بدون، مثل الـ"بدون" فى الكويت)^(٤)، وهذه إضافة نوعية؛ لأن المسألة ليست مسألة "كم" فقط، وإن كانت لفظ "جداً" تفيد الكم، ولكن المؤلف أراد أن يريك كيف ينقلب الكم كيفاً بون تغيير فى البنية الأساسية (أى والله)، ثم إنه، من منطلق التعمق فى اللامحات الفنية غير المقصودة علنا، ترك لخيال القارئ الفرصة لاستنتاج كل ذلك،

يا نهاراً أسود من أوله، لقد وعد بتلخيص (ونقد بالمرّة) ثلاث قصص، ولم يقدم إلا قصتين، ماذا سيقول عليه القارئ، نضب معينه؟ أو رفع قلمه، أو رُبط والعياذ بالله مثلاً يُربط العريس فى ليلة الدخلة فى بلدنا. لا لا هذا لا يصح، خذ عندك: (تذكر أنه لم يقرأ إلا قصتين، "طيب شوف الثالثة"^(٥))، عظمة يا ست وردة (الله).

تقول القصة الثالثة (فى الأغلب)، وضع يده على فمه يخفى ابتسامة ثالثة من النوع العادى وليست من نوع ابتسامات النقاد، ثم أردف: أما القصة الثالثة فتقول: إن واحداً لم يحب واحده. - وكان يتمنى أن يحبها، لكنها تزوجت غيره، مع أنها أيضاً لم تحبها أصلاً (لم تحب الواحد وليس زوجها)، وخلاص.

وقبل أن ترتفع الضحكة وتبقى فضيحة، وماسح الأحنذية لا ييأس من تكرار المحاولة، وربنا يستر، أحلّ ابتساماة الناقد محل ابتساماة الحاقّد (هذه الكلمة - الحقد - وردت من قبيل الاحتياط، من يدري ماذا يحمل اللاشعور من بلاوٍ، وخاصة أننا لم ندخل بعد في منطقة تيار الوعي العميق الذي يمكن أن يكشف عن خفايا هذا الحقد وغيره من دناءات النفس البشرية، وربنا يستر على الولّايا من تأويلات سيجموند فرويد البهلوانية التي كان يخفي بها جوعه الذي لا ينتهي للتقدير والحريم الأقرب^(١)). نجح فعلاً أن يحلّ ابتساماة الناقد محل ابتساماة الحاقّد، وهو لم يقل حلّت ابتساماة كذا محل كيت، فانتبه، لأنّ "ثمّ" فرقاً بين أحلّ، وحلّت، ثمّ إنه راح ينقد وينقد :

إن هذه القصة (الثالثة) أكثر تعقيداً من سابقتيها، وهي أكبر من قدرات المسئول الكبير في سن ١٩ سنة لأنها تثير في المتلقى قدراً من الدهشة وإعمال (الهزمة تحت الألف) الفكر، وهذا مما لا يتناسب مع ما يتميز به قلم الكاتب الشاب الموهوب من بساطة ومباشرة، هذه القصة الثالثة لا بدّ أنها تنتمي إلى الموجة الجديدة التي أصبحت قديمة، والتي يسمونها الحداثة، وهي ليست مجرد ما هو "قبل" ما "بعد الحداثة"، لأنّ بعد هنا لا تفيد التتابع وإنما التعديل والتجاوز، ما بعد الحداثة هو تجاوز الحداثة، الحداثة معدّلة، مثل العربات التي هي، وأيضاً التي ليست هي، إيش عرفه هو في هذه الأمور الخاصة بأصحابها جداً، لا الحداثة ولا ما بعد الحداثة من الأمور التي يسمح للعامة أمثاله أن يخوضوا فيها، ليست أيّ منهما بدعة، ولا ضلالة، لكننا نحن الذين لا نستأهل الخير، ليس إلى هذه الدرجة، فنحن لا ندوس الطعام الذي يوضع لنا بدل أن نأكله كما تقول آية الكتاب المقدس، نحن فقط لا نقدر الحداثة حق قدرها، لأننا - ببساطة - لا نعرف قدرها، هذه هي الحكاية، ألم تلاحظ المؤلف وهو يستعمل

تعبير "وكان يتمنى أن يحبها" والتمنى هنا غير الترجى لأنه - عادة وليس دائماً - يطلق على ما يستحيل تحقيقه، ولم يقل الكاتب الشاب الذي أصبح مسئولاً كبيراً، إنه كان يتمنى أن يتزوجها كما نسمع فى القصص الأخرى التقليدية، التمنى هنا للحب وليس للزواج؛ لأنه يبدو أن هذا الفتى لا يستطيع أن يحب من أصله، وهذا تكتيك حديث لا يخرج من شباب عمره ١٩ سنة فى ذلك العهد البعيد الذى لم يعرف مثل هذه التقنيات (!). فالحداثة - سيدى - لا تتطلب فقط أن تجعل المألوف معروفاً، وإنما هى تستدعى أن تجعل المعروف مسفوحاً (حلوة مسفوحاً هذه، خلّ اللغة "تقول") - وسعل سعلة عالية لتخفى ضحكة كان يمكن أن تخرج هذه المرة بصورة صريحة تفضحه بحق. - لا شكراً، كفاية، شكراً.

تيار الوعي؟ هذا هو، إنه يكتب الآن بتكنيك تيار الوعي، وهذا سيسمح له أن يتداعى، دون مشاكل، حتى يصل إلى القاهرة شخصياً، كل ذلك بجنيه وربع، الكراس بجنيه والقلم الجاف بربع جنيه، وليسر تيار الوعي ما شاء له السريان، بل ليفض علينا مثل النيل العظيم، قبل السد وبعده، مازال عظيماً، وليذهب إلى الجحيم من لا يفهم فى هذه المسائل، ثم إن الجميع لايجمعون على اسم هذا النوع من الكتابة. هل هو تيار الوعي، أم تيار اللاوعي؛ لأن الأسلاك قد ضُربت كلها فى بعضها، ولم يعد أحد يعنيه أن يسلكها من بعضها البعض (وليس من بعضها فقط)، وكل الإبر التى كان من المفروض أن نلضم فيها الأسلاك أصبحت دون ثقب، فلماذا نسلك الأسلاك أصلاً ما دام ليس ثمة ثقب للإبر نلضمها فيها، ثم إن الإبر بدون ثقب ليس لها رؤوس جميلة مهذبة، فلا يمكن أن نطلق عليها اسم دبابيس أو أن نستعملها فى الأغراض التى نستعمل فيها

الدبابيس، ثم إن الجميع لا يُجمعون على شىء، ثم يبدو، (مازال يتحدث نيابة عنهم) أن "هذا" - هذا تعود على "أن الجميع لا يُجمعون" - قد أراح الحكومة جداً جداً، (غير جداً جداً التى فى القصة الثانية) هذا قد جعل الغالبية العظمى من أهل الموجة الجديدة لا يُجمعون هم أيضاً، مع أن الذين لا يجمعون هؤلاء من أهل الحداثة يعتقدون أنهم بعدم إجماعهم إنما يغيظون الحكومة، ولكنهم لا يقولونها صراحة، وإنما هم يتكلمون عن السلطة (بضم السين مع تشديدها وتسكين اللام هكذا " السُّلطة"، وليس الكلمة الأخرى التى هى السلاطة، والتى هى غير سلاطة اللسان)، وهم يعتبرون الحكومة سُلطة، مع أن الشائع فى الثقافة المصرية لأولاد البلد أننا نسمي السُّلطة حكومة، أفلا تسمعهم يتندرون على الذى يعود مبكراً من المقهى تاركاً بقية الليلة مجتمعة: إنه خائف من "الحكومة" (التي تنتظره فى البيت)، لكن فى الأغلب هذا تعبير مجازى، أما تعبير أهل الحداثة فهو مجازى أيضاً (اكتشفت هذا فى آخر لحظة، ربنا ستر) ولكنه مجازى من الناحية الثانية، ما علينا، أهل الحداثة لا يُجمعون، أو هكذا يشاع عنهم مع أنهم يصرون على أنهم يجمعون فى السر من وراء الحكومة ومن وراء اللغة أيضاً، والمسئول الكبير يكتب قصصاً (أسماءها أوراقا من باب التواضع) وتشرها له الصحيفة الكبيرة الواسعة الانتشار، فلماذا هو "لا"، ولم لا؟ (حلوة هذه)، ولم لا يكتب هو أيضاً قصة ما بين المباشرة والحداثة، شيئاً أشبه بالتدوير: دارُ الصنف لفواً لفواً، لفَ القيد، قيدي وافي، وافي العهد ..، لا يذكر ماذا (تُقرأ منفعه من فضلك على وزن: فَعَلَ فَعِلْ، فَعَلَ فَعِلْ، أو أى وزن تراه مناسباً أنت بمعرفتك).

- خَلِّ الباقي، شكراً.

هذه هي فائدة الكراريس أم جنيه، ملعون أبو الولايات المتحدة الأمريكية، والعربات الفارهة أم مقعدين (مثل عربته الأخيرة) وأم سبعة مقاعد، وجميع صنف سائق خصوصى ليس له لازمة، وجميع صنف قرش يحول بينك وبين الناس، يا كذاب، عيب كذا، لم يبق إلا أن تهتف بحياة الفقر، بطل تهريج، تنظر من أعلى مرتدياً منظار الحكمة وكأنتك تعظ، وكلما قرأت نعى أحد الزملاء، وخاصة إذا كان أصغر منك سناً، قلت خطبة عصماء فى الناس الذين لا يتعظون، وهات يا جرى، تدعى أنك عامل حساب الموت فى كل لحظة، ولا عامل حسابه ولا حاجة، وتزعم أنك علقت نتيجة العد التنازلى، تنازلى ماذا وأنت طالع تنهج، تذكر أنك لم تستطع أن تتذكر أنت وصديقك المخرج اسم جمال حمدان، نسيتماه وكأنتكما تتذكران اسم قائد معركة ووترلو، أخذتما خمس دقائق لتتذكرا اسمه رغم أن اسمه لا يوجد ما هو أسهل منه، جمال حمدان، جمال من جمال عبد الناصر، وحمدان من الحمد لله، وما سمى الإنسان إلا لنفسيه، وما القلب إلا أنه يتقلب، يا حلاوة، داخليين على التناص، يا عم سيبك، الشيخ عبد العزيز فى زفتى، كان اسمه شيخ لمجرد أنه كان مصاباً بمرض عصبى يجعل جسمه يترنح (علمت بعد ذلك أن اسم المرض هو الرقص الزنجى وأنه روماتيزم فى الجهاز العصبى) ومع ذلك كان يمسك الحديدية التى يثق بها حب البن المحمص فى الحَجَر دون أن تقلت منه الحديدية أبداً، وفى كل مرة يرفع الحديدية، أتصور أنها ستأخذه وتغوص به، وه و يترنح، داخل الحجر، أو أنه سيطوح بها بعيداً وتأتى فى أحد، بسألته مرة عن سبب حركاته هذه الملتوية التى لا تتوقف فقال وهو يمسك ييدى ويشدها إلى مقدمة جلبابه، لست أدرى لماذا، كنت فى سنة تانية ابتدائى، قال مجيباً إن السبب هو أن «المخ ساح على العقل»، إذن يبدو أن هذا - ولكن بإيجابية، أى

الناحية الثانية - هو الذى يفسر مسألة الحداثة، (لاحظ الحذر الذى اتخذته باستعمال الجملة الاعتراضية التى تقول: ولكن بإيجابية، الاحتياط واجب)، ليس المخ فحسب الذى ساح على العقل، وإنما يبدو أن كله ساح على كله، ليس هكذا بالضبط، يا خبر!! ماذا جرى؟ كل ذلك بسبب كراصة بجنيه، فلأدخل على القصة، وكفى نقداً، فالقاص لا يحاسب إلا على قصة، أما الناقد فحدث ولا حرج (لن أقول لك أكثر من هذا)، فإلى القصة:

الكراصة تنتظر، والوعد قائم، والوسواس يعمل، إذا لم ينفذ هذه القصة، بالشكل الذى حدده فى الوقت الذى قرره، سوف يخسر أهم قضية ينتظر الحكم فيها هذه الأيام، طيب ما علاقة هذا بذاك؟ ألم أقل لك إنه وسواس يا أخى؟. الله! خلّ بالك معي، نعم لا بد من ضبط المسألة تحديداً، لأنه إذا كان الثواب على قدر المشقة، فلا بد أن تكون القصة على قدر المشوار، وبالضبط، انتبه:

البداية: تن تن تن، أغش هذه التيمة الصوتية - حلوة التيمة دى ولو إنها غلط - من رواية عطلة رضوان التى كانت حافزاً لكتابة هذا العمل، وهى رواية رائعة بلا شك فى الأغلب، تن تن تن، علامة البداية وليس سخرية بالرواية، مرة أخرى: البداية، هُب:

".....(نقط - هى كذا بدأت القصة بنقط، بمعنى أن البداية ليست بداية، ولكنها استمرار لحكاية بلا بداية ولا نهاية يا عم محفوظ، ثم أنت مالك؟).

..... ومرّت الفتاة المظلّلة (سأبحث عن هذه الكلمة فى القاموس حين أصل إلى مكتبتي بالقاهرة) وهى تمشى الهوينى، يانهار إسود، هُوَيْنَى مرة واحدة، يا لغرابة النطق، يبدو أنني تقمّصت المعتدى وهو المسئول الكبير إياه، الهوينى كلمة بسيطة لكنّها لم تعد مألوفة، لذلك

يبدو أنهم حرّفوها فأصبحت الهويدا، وبما أن هويدا اسم علم ولا ينبغي أن يعرف العلم بالّف لام التعريف (إلا من باب السب والتحقير) فقد حذفت كل من الالف واللام فأصبحت "هويدا"، لكن هذا بالنسبة إلى ما يتبعه الناس في تسمية بناتهم هذه الأيام، وهم أحرار فيما يفعلون، أما أنت فلا تستطيع أن تقول إن الفتاة المظللة تمشي الهويدا مثلاً، لا تستطيع أن تقولها وأنت تكتب قصّة، أو تزعم ذلك (هناك حلّ أسوة بالمسئول الكبير، إذا لم تنفع قصّة، فلتسمّها "أوراق" أو شيئاً كهذا، ماشي؟ خذ راحتك) نقول لا تستطيع أن تقول تمشي الهويدا وأنت تكتب قصّة، لكن ربما تستطيع ذلك وأنت تكتب قصيدة نثر، من أين تأتي هذه الاستطاعة؟ لا تؤاخذني، من قال لا أدرى فقد أفتى (من الفتوى وليس من الفتّة) ثم، مرة أخرى: إلى القصّة، ومضت الفتاة المظللة (بدون علامتى تنصيص)، تمشي "الهويني" اسمع، ما رأيك أن نترك الكلمة هكذا كما هي نون حرج وبدون محاولة تفسير، وسيخرجها النقاد على أنها تناص من مقامات الحريري مثلاً، دعها تمر، ولعل أصل التناص من النص نص (بضم النونين في كل نص) فينطقان على بعضهما هكذا: من النص نص، وليس من النص (يفتح النون، يعنى النص) نون نون نون، إلا حكاية مجلة نون أو الجمعية النسائية لصحابتها ومديرتها نون، نون والقلم وما يسطرون، إنك بنعمة ربك لمجنون، والمصحف الشريف هذا ليس استهزاء ولا حاجة، بل إن الكاتب يستعير التعبير الجميل مخاطباً نفسه منبهاً إياها أن هذا الذي يفعله الآن يمكن أن يعتبروه جنونا بالتمام والكمال، ذلك لأنه يخرج من موضوع إلى موضوع - من غير تيار وعي ولا حاجة - لكن والله هو يفعل ذلك قاصداً جداً وهو في كامل قواه الحداثيّة ومسئول، ويعول، وأنت وذمتك، ثم على من يشك أن ينتظر للنهاية ليرى أن المسائل ماسكة بعضها، أما كيف يكون

الإنسان الذى هو الكاتب الذى يصير، بنعمة ربّه مجنوناً، فهذا وارد من باب الرحمة. من حيث إنه من لم يحتمل، ولم يجد، ولم يفهم، ولم يُسمع، فقد يطلب من الله الرحمة ولو بالجنون، هذا إذا عجز عن قرض قصيدة نثر تنقذه من كل ما سبق، ومن الجنون فى آن، كيف؟ لا أعرف، ثم هو وشطارته، كنا قد وصلنا إلى أين؟ إلى تفسير الشيخ عبد العزيز لمرضه المسمى رقصة الرنجدى بأن "المخ ساح على العقل"، ويتكثف المسألة مع حكاية نص على نص، تجد أنك إذا وضعت نصاً على نص، أصبحت المسألة "نص نص" (وهذا ما ألفه العامة فى القاهرة المحروسة حين يعنون نص على نص أى نص نص، يعنى بالإنجليزية. فيفتى فيفتى)، وهذا التفسير يناسب مسيرة السلام على كل حال، ونحن الآن نتكلم عن ثقافة السلام، يعنى ثقافة نص على نص، شوية إسرائيل على شوية أردن، على شوية أسبانيا، على شوية برتغال. لا يا عم البرتغال الناحية الثانية ليست شرق أوسطية، ولا حتى أسبانيا، فهى غرب أوسطية، ويمكن فرنسا تطلع وسط أوسطية، ما علينا، إلى القصة أو ما قبل القصة، والله الظاهر إنها كلها سوف ترسى على ما قبل القصة، ولكننا نستدرك فنقول: إن نص على نص له معنى إيجابى آخر غير نص على نص، فقولك نص على نص هو أشبه بقولهم: قول على قول^(٧)، أو أشبه بـ "قهر على قهر هو" العمر فيه كام شهر، يا اللغة العربية ويا لقدرتها على احتواء العامية دون استئذان، (شفت ذى؟)، الدال عليها نقطة من فضلك، ولو أني سأحذفها فيما بعد تجديداً للغة)، ولكن إذا أردنا الأمانة فسوف نكتشف أن اللغة العربية - هكذا - غيرت المعنى، لأنها قلبت أهر (بالهمزة) إلى قهر (بالقاف)، مع أنك حين قرأتها - عزيزى القارئ - قرأتها بالهمزة، وهى مكتوبة بالقاف، فلا احتوت العربية العامية، ولا حاجة، فالقهر باللغة العربية يعنى التسلط والقمع وأشياء من هذه، أما

"أهر" بالعامية، فالمثل يقصد الحزن، والزعل، والهـم، فإذا أردت أن تكتبها بالعربية فلا بد من القول "حزن على حزن"، وهنا سوف تختلف البقية حتى تلتزم بالقافية، وسوف تضطر إلى أن تكمل "هو الشعر فيه كام وزن"، فتصبح على بعضها هكذا: حُزن على حُزن، هو الشعر فيه كام وزن؛ ذلك لأنه إذا كان النقاد قد سمحوا بالتجاوز عن الالتزام بالقافية، فلم يسمح إلا ندرة منهم بالتنازل عن الوزن، والوزن هو الموسيقى والشكل هو المضمون، ومن لا يعجبه هو حر، وجهات نظر، نحن لا نريد أن نحرج أحدا، الواحد من هؤلاء (ابحث أنت عن من تعود "هؤلاء") يظل يكتب ويكتب ويكتب حتى تأتي لحظة الصهـلة (أى سهيل بشرى) وهات يا إبداع.

- لا شكرا، أنا أصلى منتظر صديقا.

.....

- أشكرك، ممكن أدفع من غير ما أطلب.

.....

- ياخبر، لا أقصد، أشكرك، ذا كرم شديد، أشكرك.

ولا منتظر صديقا ولا حاجة، كل الحكاية أنه من باب مراسيم استعادته لحريته، (لاحظ العودة إلى الحديث "عنه" بضمير الغائب، مع أنه ينسى كثيرا ويتحدث بضمير المتكلم، وهى ليست عودة مقصودة، بقدر ما هى فنية ملعوبة، أكمل) أقول: منذ أن قرر أن يستعيد حريته ما أمكن ذلك، قرر ألا يشرب حاجة ثانية، ما دام هو لا يريد أن يشرب فعلا، وكله بحسابه، الإحراج تدخل فى الحرية على كل حال، يا خبر، لماذا لم يمر عليه ولا واحد يبيع اليا نصيب، وما الذى ذكره باليا نصيب الآن؟. المهم أنه كلما حاول أن يذكر نفسه أنه يكتب قصة

لا مذكرات، قفزت إلى ذهنه أوراق هذا المسئول الكبير وجعلت مخّه مثل الصفحة البيضاء، ولا بد الآن أن يعترف أنه أرسل إحدى قصصه القصيرة إلى هذه الصحيفة بالذات التي ينشر فيها المسئول الكبير أوراقه الباكورة، وأنه بطول لسانه (أى بسلاطة قلمه) قدّم في الخطاب المرفق نقدا لمستوى القصص التي تنشر في هذه الصفحة، وكان ذلك قبل حكاية المسئول الكبير وأوراقه، والنتيجة أنهم لم ينشروا قصته التي أرسلها، فكتمها في نفسه، حتى تذكرها الآن، مع أنه لم ينسها أبداً، وقد أثبت هذه الحادثة عملاً بالأمانة المطلوبة من واحد مثله، وأيضاً لأنه مطمئن أن أحداً لن يعرف سبب حقه وإحباطه، لأنه لا ينوي أن ينشر هذا الكلام (كذا، وكذا) اللهم إلا لو ضغطوا عليه جداً جداً، وساعتها يمكن أن يشطب هذه الفقرة خجلاً أو منظره، ثم هاهو الآن يقع في إشكالية جدلية (حلوة هذه): فبينما الدافع الأدبي لمحاولة كتابة القصة - المزعومة الآن هو أوراق هذا المسئول المنشورة، كما أن المثير المادى هو شراء كراسة بمحض الصدفة، فإن المانع الآن الذى يمنعه من الدخول إلى القصة هو نفس أوراق المسئول الكبير (على فكرة سرت إشاعه تقول إن المسئول الكبير كتب هذه القصص هذه الأيام وليس لما كان عنده ١٩ سنة، ولم يُعرف إن كانت هذه الإشاعة مدحاً أو ذمّاً، كذلك لم يعرف إن كان المدح أو الذم هذان موجهين إليه شخصياً أم إلى القصص، وأيضاً هو لم يرفع قضية على صاحب هذا الكاريكاتير، فلا بد أنه لم يفهم اللمز، أحسن. لا، هكذا زادت جرعة النقد بادعاء نقل إشاعة مغرضة، فإلى القصة، من الأول:

علامتا تنقيص ونقط في الأول: "...ومرت البنت المملظة، مازال مصراً على أن يترك هذه الكلمة هكذا حتى لو لم يجد لها معنى في

القاموس^(٨). إنه يعتقد بحسب إبداعى مشكوك فيه أنه لا توجد كلمة فى الفصحى تفيد مضمون هذه الكلمة ذات الإيقاع الممتلئ الرخو، وبالتالى فلا يمكن الاستغناء عنها أو استبدالها، قل بضّة، أو بسمينة، أو بدينة، أو مليئة، أو ممتلئة، لكنك لا تستطيع أن توصل ما توصله إليك ليلي علوى بلظلتها المتوسطة، قبل مسرحية الجميلة والوحشين (بفتح الواو)، مضت البنت المظللة، وهى لا تدرى أن والد خطيبها استشهد فى حرب الاستنزاف، ولذلك فإن خطيبها لم يره، كان فى الثالثة من عمره، فربّته أمه من معاش محترم، ومكافأة سخية، ولكن ارتفاع الأسعار وبرودة لياالى الشتاء معاً، جعلها تقبل الزواج عرفياً، وحين شبّ الفتى (حلوة شبّ الفتى هذه لكنّها ليست من التناصر مثلاً ذهبنا إليه بشأن الهوينى ومقامات الحريرى؛ إذ لا يوجد نص واحد معروف اختص بتعبير شبّ الفتى، بل نصوص كثيرة متفرقة) حين شبّ الفتى وأصر على دخول الكلية الحربية ليكرر أمجاد أبيه، هكذا يقول التليفزيون عند الاحتفال بأعياد النصر والجلاء، ويمكن بمناسبة الهجرة الشريفة أو التهجير الاضطرارى. الحقيقة أن أمّه لم تحك له شيئاً عن أمجاد أبيه تلك، ليس تنكراً لذكرى أبيه، ولا حرصاً على مشاعر زوجها العرفى، ولكن هذا هو الذى حصل، وقد عارضت أمّه رغبته فى دخول الكلية الحربية معارضة شديدة، وأقسمت برأس أبيها وتربته معا - وليس بذكرى زوجها الشهيد - أنه لو دخل الكلية الحربية فسوف تعمل وتسوى، ولكن الولد أصرّ وقدم أوراقه من ورائها فى السر، ولولا ستر الله ورسوبه فى اختبار الثقة، لما مرّت المسألة على خير، كان يوماً أسوداً. إقفز، إقفز يا أستاذ، الحمد لله ما زال أستاذاً لم يُجند بعد، ودّ لو تنشق الأرض وتبتلعها، واحترم بُعد نظر أمّه، ولم

يقفز، فَلَمَّتْهُ كلية الحقوق على خير (قطع) ما هذا؟ إن القصة بدأت بالبنت، والمفروض أن نقدمها إلى القارئ حتى يتعرف عليها أولاً؛ فهي البطلة، لكن القصة الحديثة ليس فيها بطل ولا بطلة، الشعب هو البطل، الشعب هو القائد. بيان ٣٠ مارس^(١)، عندك، كما كنت، إلى القصة، القصة هي البطل. إرجع إلى القصة من فضلك فقد وصلنا دمنهور، هداً القطار من سرعته، الهزة زادت، والقلم لا يستقر على ورق الكراسة، من أغرب الخبرات أن تكتب قصة مهزوزة بغير قصد، لمجرد أن القطار يهتز، ولا بد أن الكلام سيتفكك من بعضه البعض ويعاد تنظيمه وحده فتصبح القصة من نوع جديد لم يقصد إليه الكاتب، ولعل صلاح جاهين كان أسبق إلى اكتشاف هذا النوع من الإبداع حين يقول "لَمَّا تَهَشَّكُهَا حَبَّةٌ تَلَاقِيهَا مَقْلَفَةٌ"^(٢). أه لو ينشرون فوازيه في كتاب مستقل، إذن لتعلموا معنى الإبداع، مَنْ ذا الذي يتصور أن المعزة، حين أكلت البيت، أن البيت كان معمولاً من خشب مُصَاصَةِ القصب^(٣)، الله يرحمك يا صلاح ولو أنى زعلان منك، مستعجل لماذا يا رجل فما نحن جالسون، يا الله، لكل أجل كتاب، القطار يهتز، والقلم يهتز، والظلظة تهتز في غير رجزرجرة، لأن هذه مسألة محسومة بفضل النقد الحديث، فإنما يتحقق التوازن الموضوعي في السياق المتنامي للأحداث بمثل هذا الهارموني الخفي الكامن وراء أية هزة أو هزهزة، الله!!!. ولمّا كان الكلام عن خطيب البنت قد أخذ أكثر من حقه، فهل ينفع أن نجعل أبا البنت هو الذي استشهد في حرب الاستنزاف، وبالتالي ننقل كل الكلام الذي وصفنا به أبو الخطيب لصالح البنت فيتحقق التوازن الموضوعي إياه؟ طبعاً، لا، لا ينفع؛ ذلك لأن الشعور الذي يتكون عند الشاب وهو لا يرى زوج

أمه العرفى إلا وهو خارج من عند أمه فى الضحى العالى قرب الظهر، هذا الشعور لا يجوز أن تمر به البنت، فهو خاص بشاب له مواصفات هذا الشاب بالضبط، وإلا لما أمكن أن يصل إلى القراء بنبضه الحقيقى، حالة كون الشاب يعيشه أو يعايشه، إن المسألة تحتاج فعلاً إلى شباب من الذين يقال عنهم "وشب الفتى"، أما البنت، الملاحظة فهى قد تحب أمها وتتقمصها، فتحب زوج أمها وبالتالي تفرح بمبيته العملى وخروجه المتأخر، وتستفيد من ذلك فى إثراء خيالها، ثم قد يتمادى الأمر فتعتبره بديلاً للأب، حتى لو لم يعرض عليها أبوته لضيق الوقت الذى يقضيه بعيداً عن حجرة النوم، ثم إنه، والشهادة لله، عمره ما نظر لها نظرة كذا أو كذا. (قطع) ماذا حدث؟ هل نسيت أن التى تزوجت عرفياً هى أم خطيب البنت، الذى لم يخطبها بعد، وليست أم البنت، وأن والد البنت لم يستشهد، بل هو مازال حياً يرزق فى السعودية، طنطا هذه أم ماذا؟ لا ليس بعد، القطار هذا من سرعته فقط، منطقة إصلاح، ما رأيك لو قلبناها غما ونكتفى بهذا القدر، ونقتدى بالمسنول الكبير حالة كونه عنده ١٩ سنة، ونهى القصة بأن تأتى عربية مسرعة يقودها شاب متهور، ويصدم البنت وتروح فيها، وخالص، وسوف يطلع لى فى طنطا بائع الحمص أشتري منه كيساً نظيفاً بجنيه، (نفس ثمن الكراس أو الدولسيكا) وأظل أمضغ كل واحدة على حدة (لاحظ الموسيقى: كل واحدة، على حدة) عشرين مضغة قبل أن أبلعها حتى نصل إلى القاهرة، وأكون بذلك قد أبدلت وسواساً بوسواس، «خالصين»، بلا قصة بلا كلام فارغ. لم يكن جنيهاً اشتريت به كراسه، كل حاجة بجنيه، الحمص والآيس كريم زانلان بطبيعتهما إلا هذه الكراسه التى أخرجته كل هذا الإحراج

(رجع يحكى بضمير الغائب. خلّ بالك) فعلا هي منطقة إصلاح، سوف يتأخر القطار عن موعد الوصول، حسدَ انضباطه كما حسدَ من قبل المسئول الكبير على نشره أوراقه التي أثبت فيها تاريخ التصنيع منذ ١٩ سنة لكنه ولم يثبت مدة الصلاحيه، المصيبة في التأخير هو أن القصة سوف تطول وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم إن النهاية المقترحة كانت تحتاج أن تكون البنت أقل وزنا، بل إنها كانت تشتترط أن تكون البنت نحيفة، ولا مانع من أن تكون مصابة بداء النحافة العصبية^(١٧)، أو رهاب السمنة، مثل الأميرة ديانا التي تاكل وتتقيأ، تاكل وتتقيأ لتاكل وهكذا، ثم إن القصة هكذا ستصبح قصة قصيرة جداً، وهو (أى أنا) كان قد قرر أن ينتهزها فرصة ويجرب نفسه في هذا النوع من القصص التي هي ليست قصصاً قصيرة ولا طويلة، ثم إن المسألة ليست بالطول ولا بالقصر، المهم الفكرة، وهو كان قد سمع في إذاعة لندن مؤخراً أن مؤلف فكرة لفيلم أمريكي كتبها في أربع صفحات فقط وقبض مقابل ذلك مليون دولار أو أكثر، لا يذكر كم بالضبط، المسألة إبداع أو لا إبداع، فإذا كان إبداعاً فأى شىء يكفى، وإذا كان لا إبداع، خلاص بقى، ما الداعى لأى شىء من أصله، ثم إن العربية التي يقودها الشاب المتهور إذا ما صدمت البنت سوف تشوهها دون أن تدشدها؛ ذلك لأنها (البنت لا العربية) تبدو مخلية من العظام مثل الفراخ المخلية التي أصبح ثمنها ناراً بعد حكاية جنون البقر، فإذا ما حدثت الحادثة بهذه الصورة المفجعة فلن ينفعها لا المسئول الكبير ولا الكراسية أم جنيه ولا خطيبها ابن شهيد الاستنزاف، وستتحول إلى كتلة من الشحم واللحم مغطاة بـ، أو معجونة في، قطعة جلد هنا، وقطعة قماش هناك، منظر مرعب وقبيح قد ينفع مصوراً صحفياً

مبتدئاً لكنه لا يصلح لقصة كهذه، والألغن لو تركوها يوماً أو بعض يوم. ناهيك (!!) عن عدة أيام مثلما يتركون الكلاب فى الطريق الزراعية، فقد تنتفخ لتصبح مثل جيفة بودلير^(١٣) (يا ترى هل هذا تنافس أم تشبيه تمثيل أم مجاز مرسل؟). ولا يهكم سوف يجدون لها حلاً). قال يعنى قرأ جيفة بودلير، وهو لم يعرفه إلا أول أمس، وبفضل واحدة اسمها سلمى الخضراء الجيوشى، وحتى هو لم يلاحظ أن الذى ترجم قصيدة بودلير هذه هو أونيس وليس سلمى الخضراء^(١٤). لا، هذا اقتراح سخيف حتى لو كان سينهى القصة نهاية من نوع قصص المسئول الكبير، لا بد من قصة وإن طال السفر، قصة حقيقية بالرغم من أنها لن ترى القارئ أبداً مثل قصصه السابقة التى لم تُنشر، هى لم تنشر لسبب بسيط هو أنه لم يتقدم بأغلبها للنشر، تماماً مثل فتاة القصة الثانية للمسئول الكبير التى لم تتزوج الواحد الذى كانت تحبه لأنه لم يتقدم لها أصلاً، بل ربما لم يعرف عنها أى شى كان، لكن يبدو أن المسألة متعثرة، والملعوب مكشوف، فلم تكن ثمة قصة ولا يحزنون، وإنما المسألة أنه كان يريد أن يتحدث عن نفسه بزعم أنه يكتب قصة، فكل قصصه القصيرة - التى لم تنشر - هى هكذا، لا يجزئ أن يكتب سيرة ذاتية بشجاعة، فماذا يفعل؟. يكتب، أى يرسم، صوراً لاهثة، يطل من خلالها بذاته الحقيقية أو المتصورة، ثم يختبئ ويدعى، أنها قصصا، قال يعنى، ثم إن كل ما ذكره فى موضوع القصة الحالية هذه حتى الآن هو أن ثمة بنتاً ملظلة، وأن والد خطيبها استشهد فى حرب الاستنزاف، وأن حماتها، التى لم تصبح حماتها بعد، تزوجت زواجاً عرفياً من رجل لا يراه ابنها (مشروع خطيب الملظلة) إلا خارجاً فى الضحى العالى من حجرة

النوم، وكل ما عدا ذلك كانت أفكاراً سخيفة ومرفوضة، حتى النهاية المقترحة كانت تتعارض مع الأرجوزة اللطيفة التي كانوا ينفون بها مسلسللاً لا يذكره وهم يغنون "تامّت، بحمد الله، تامّت، بحمد الله" صحيح الحمد لله على كل شيء ولكن كيف نستطيع أن نحمده ونحن نشم رائحة هذه الجيفة النتنة جيفة بودلير، لا يا عم، الإبداع لابد أن يكون جميلاً ولتذهب جيفة بودلير إلى الجحيم يا يوسف وهبي، ليس من الضروري أن تكون النهاية سعيدة، ولكن لابد أن تكون ثمة نهاية، هكذا قالها الشيخ درويش في نهاية زقاق المدق^(١)، وهو يوحى مستهدداً: أليس لكل شيء نهاية؟ بلى، لكل شيء نهاية ومعناها بالإنجليزية end وتهجيتها e,n,d... ولكن نهاية ماذا ونحن لم نبدأ، إن النهاية هنا تكاد تجيء قبل البداية، وسيقول النقاد، "لم تكن القصة تبدأ حتى انتهت" - حلوة هذه - غادر القطار طنطا دون أن يمر في العربة بائع الحمص، درجة أولى ياعم، هل يأكل هؤلاء الباشاوات حمصاً مثلهم مثل صعاليك الموالد، لا يا سيدى، لابد أن مروره كان خطأ الأسبوع الماضى، ثم هو، يركب الدرجة الأولى مثلهم ويتصور أنه لا ينتمى إليهم، يضحك على نفسه أم على من؟ قالت له ابنته: لا تركب القطار الفرنساوى سوف يقف بك فى كل المحطات، ورد عليها: إن هذا أحسن لأنه يريد أن يقرأ وقتاً أطول، وأن يرى الناس وهم ينزلون ويصعدون فى كل محطة؛ فقد اشتاق إليهم ولم يكن فى حسابه أن هذا القطار الفرنساوى "هكذا" سوف يكلفه أن تصبح القصة القصيرة رواية "هكذا" والعياذ بالله. كيف تكون الكتابة قهرية ثم يخرج منها أى عمل إبداعى صادق؟. لقد لاحظ أنه كرر كلمة "هكذا" ثلاث مرات فى سطرين؟. هذه ركافة سخيفة، ولكن دعها فقد يجد النقاد لها

حالا، قد يسمونها تيمة مُمَيَّزَة مثلاً، هم أحرار، فى التكرار جمال خاص، (!) هذا التكرار بالذات، وحتى هذا الأسلوب الذى ينتهجه الآن هو تكرار لمنهج مسبق، فهو ليس فيه جديد، لقد قرأ قصصاً من قبل مكتوبة بهذا التكنيك (أى الأسلوب، أو المنهج أو التقنية!!) حيث يبتدع الكاتب الشخوص والأحداث أمام سمع القارئ وبصره، ثم يخرج له (للقارئ) لسانه، وهو يغيظه حين يضبطه وقد عايش الأشخاص كأنهم حقيقيون، شفت المهاراة؟! شئ أشبه بالذى يلعب بورق مكشوف ومع ذلك يكسب، زينب والعرش؟يجوز. ولكن فتحى غانم لعب بورق مكشوف وكسب، والتقليد غير الأصل، فمن أضمنه أن القارئ سيتحملة مثلما تحمل هو عبده جبير، ولو أن عطلة رضوان ليست "كذلك"، ولا هى "ذلك" إذن هى ماذا؟. "لست أدري" يا إيليا أبو ماضى، تناص هذا أم تداع؟. هذا شغل النقاد، مالى أنا؟. (كانت فى الأصل أنا مالى، ثم قلبتها فصحى قال باعتبار أنها لما كانت معدولة لم تكن فصحى) فهو (أنا) لم يستحدث هذا النمط من الكتابة (عزيزى القارئ، ليس كل مرة سوف أنبهك أن تلاحظ كلمات وتعبيرات مثل "هذا النمط" أو "يستحدث" أو فنية استعمال العامية أو ما يبدو عامية بالفصحى؛ لأن المسألة زادت، والجمل والقصص الاعتراضية لا تنتهى، وهذه الطريقة - عزيزى القارئ - تحمل معنىً ضمنيًا لا يسرك، ما هو المعنى. ألم تجده بنفسك؟ تستأهل. يا سيدى معنى هذه الشروح المعترضة أن الكاتب يشك فى قدراتك (ولا مؤاخذه)!. فإذا كنت قد زعلت، فسوف أكف عن أن أنبهك هكذا على العمال على البطال، ولكن دعنا نتفق على أن التعبير الذى هو، والذى أريد أن ألفت نظرك إليه، سوف ألحق به علامتى تعجب بين قوسين هكذا: (!!)

لتأخذ بالك مما أريدك أن تأخذ بالك منه، وأنت وشطارتك، خلاص؟. بالله يا سيدى إلى القصّة، وربنا سوف يسهل إن شاء الله. ولكن ما رأيك - عزيزى القارئ - أن أتركك أنت تكمل القصّة كما تشاء، لقد ذهب النقد الحديث إلى التأكيد على أن القراءة مثل التدخين هي مسئولية كل قارئ، وأن على المتلقى أن ينشئ القصّة إن شاء (!) (بدأنا فى علامات التعجب، خلّ بالك من هنا ورائج) على القارئ أن ينشئ القصّة وأن يشارك فى تأليفها، لا لأن الكاتب حدثى، أو لأنه عجز عن تأليفها، ولكن لأن المسألة مسئولية مشتركة، فلم يعد ثمّ مكان للصوت الواحد، ولا للبطل الواحد، ولا للتسلسل الواحد، ولا للقصّة أصلاً، وكل واحد وشطارته، فهل ستفشل أنت - عزيزى القارئ - أن تلتقط دلالات علامات التعجب، حتى لو لم أضعها أصلاً مثلاً فشلت أنا فى فهم علامات التعجب التى توضع على الطرق السريعة الطالعة نازلة، والتى عرفت بعد مدّة أنها تعنى "إحذر"، وكنت أحسبها تقول مثلاً هو مكتوب على العربات نصف النقل " لا تتعجب فتلك إرادة الله"، ويبدو أنه كان عندى حق، فقد كنت ألاحظ أنه بالقرب من هذه العلامات توجد عربات محطمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله... إلخ، نرجع إلى قصتنا، وما دمت يا عزيزى القارئ لا تبدو عليك أية حماسة للتكملة فسوف أكملها أنا وأمرى إلى الله.

تذكرت للتو أننى لم أذكر من شخصيات القصّة إلا البنت وخطيبها المزعوم، وحتى اسمّاهما لم أذكرهما، وهذا نقص شديد ولعله هو السبب فى هذا التوقف، ولوأنه، بينى وبينك، القصّة لم تبدأ أصلاً حتى تتوقف، ولما كان الباقي من الزمن أكثر من ساعة يا عمّنا نجيب^(١٥)، فلا بد من تعداد بقية الشخصيات، ولكن كل حى باسمه،

فخذ عندك: البنت المملوطة لها أخ اسمه أحمد، وأختها اسمها عواطف، وأبوها اسمه عبد الغفار حسن عبد الغفار، وبالتالي فهي من عائلة عبد الغفار من الغربية أصلاً، بلد صغيرة بين زفتى وبركة السبع اسمها "دمنهور الوحش" اسمها كذا!!، اسمها مديحة، وأمها عندها حوّل خفيف من الذي يعطى للعينين جمالا خاصا مثل عنبر إلى الأبد، أعنى مثل لندا دارنل^(١٦)، (!!)، أما خطيبها (خطيب البنت لا الأم) فله أخ اسمه عبده (قد يكون عبد الفتاح أو عبد الغفار أو عبد الله.. إلخ)، ومع ذلك فقد اكتشف أنه مكتوب هكذا في شهادة الميلاد "عبده" لأنه بالإنجليزية Abdu وهو لم يعرف أنه ليس اسم دلع إلا وهو يستخرج الأوراق للهجرة إلى كندا، إذ يبدو أن حكاية زوج أمه العرفى لم تمر عليه بالساهل، فسافر، الطيب أحسن، وهو (تعود على الخطيب أو على أخيه عبده أيهما أقرب) كانت له أخت اسمها سلوى، وعندها شلل أطفال، ولكنها تزوجت زواجة معقولة، وهذا أمر يتكرر لكثير ممن عندهن شلل أطفال، إذ يبدو أن المسألة فيها أمور جذب وحيوية لا نعرفها نحن الذين ليس عندنا شلل أطفال ولم نتزوج واحدة عندها شلل أطفال، وهكذا يتجمع عدد من الشخصيات فجأة. يمكن بقليل من التوافق والتبادل والمصادفات السارة والسيئة، ثم بعض الحذف وكثير من الإضافة يمكن أن يتم نوع من الصياغة المشتبكية (!!) توصلك إلى شرم الشيخ وليس إلى القاهرة فحسب، بل إننى أستطيع أن أتحدك بالمزيد لأنها تبدو عملية أسهل من الحكى الطولى، فعندك مثلاً جمهرة من أولاد العم [أولاد عم البنت لا الخطيب] يمكن تسميتهم الواحد تلو الآخر إذا احتاج الأمر، بعضهم يعمل فى العراق ويرسل خطابات ولكن بخط غير خطه، يمكن مات وزملاؤه يصبرون أمه، وبعضهم فى إيطاليا، وبعضهم كان يعمل فى لندن شخصياً عدداً من السنين حتى أخذ الجنسية الإنجليزية، ثم توقف عن العمل بسبب

مرض نفسى، ثم تمادى فى التوقف بحركات مصرية أصيلة، وهو يأخذ الآن بدل بطالة ويكتفى به ليتفرغ للأعمال "الأخرى"، مع أن البنت لا يبدو عليها إطلاقاً أن لها أقارب من هذا النوع، ويمكن لأى واحد من هذه المجموعة غير المتجانسة أن يرسل خطاباً يقبل به الدنيا، فتحلو القصة وتمتد بلا صعوبات، أو يمكن واحد منهم يطب فجأة عائداً إلى مصر، ويحاول أن يخطب البنت شخصياً، لا من أجل لظلمتها ولكن لأسباب دينية تتعلق ببنااته اللاتي سينجبهن منها فى الغربية واللّاتي قد يرافقن "الصديق الولد" (Boy-Freind) إذا كانت أمهن إنجليزية (لاحظ أننى اخترت الجدع الذى يعمل فى لندن ويأخذ بدل بطالة بالذات بون غيره لأسباب لا تخفى عليك، مثل أنه لو امتدت القصة إلى لندن فسوف تجد هناك جالية عربية لا حصر لها تنفع فى حَبِّكَ الأحداث)، وصاحبنا هذا - ابن العم - الذى يمكن أن يطب فجأة ليخطب البنت، يعلم علم اليقين أن زواجه منها لن يمنع بناته مستقبلاً أن يتمتعن بحرية البنات الإنجليزيات حتى لو كانت أمهن السيدة زينب نفسها، أقول إن هذه "الفرشة" من الأشخاص هنا وهناك قادرة على عمل ما لا يعمل، فلماذا حبس نفسه من الأول فى هذه الشخص، هذين الشخصين، اللذين لم يقدرا أن يعملوا أى شىء يوصله إلى القاهرة، بل إنه على الناحية الأخرى، ناحية الخطيب، يوجد عدد آخر من الشخصيات الجاهزة للدخول إلى بؤرة الأحداث (!!) وسأضرب لك مثلاً واحداً لأن الدنيا ازدهمت بالشخصيات، فزوجة خال الخطيب اسمها إحسان، وقد راودته عن نفسه وهو بعد فى سنة ثانية ثانوى حتى صار فى كلية الحقوق، كان جسمه فائراً من يومه، وهذا مرتبط - بشكل ما - بالدور المشابه الذى قامت به معه الغسالة التى اسمها أمينة، والتي تنادىها أمه بأى فهمى مع أن ابنها الكبير اسمه لطفى (معلومة ناقصة تستكمل: لعله ابنها الأكبر من

زوجها السابق. من يدري) وهو بعد في سنة ثانية إعدادي، شيء أشبه بالبروفة للأحداث التي ستحدث فيما بعد، وبالذات مع زوجة خاله وليست مع البنت، فقد كانت أم فهمي تجرجر الولد في الكلام عن ما يحدث في الحجرة بين أمه وزوجها العرفي (يسمونه هذه الأيام "البيات") وكانت بذلك تضرب عصقورين بحجر (!)، فمن ناحية كانت توغر صدره نحو أمه وزوجها وهو ليس ناقصاً، ومن ناحية أخرى كانت تثير فيه مشاعر دافئة ولذيذة وسلسة وأشياء حلوة جداً لا يعرف لها اسماً، وهو إذا وصفها باخت؛ ذلك لأنه لا يعرف كنهها (!). فلما جاءت حكاية زوجة خاله هذه لم يستغرب الأمر، لكنه أبداً لم يغفر لزوج أمه ما يفعله مع أمه داخل الحجرة، مع أنه زوجها فعلاً، ولو عرفياً.

أظن - عزيزي القارئ - أنا عملت ماعلي، ويمكنك بأية درجة من الموهبة، وبيون موهبة حتى، أن تعمل ما تريد من كل هؤلاء، ثم لا حظ أن هذه قصة داخل قصة داخل قصة، مثل حركات ديستوفسكي الذي كان يكتب بالشبر لزوم القمار والذي منه^(١٧). الآن فهمت كيف تتولد القصص من بعضها البعض لمجرد أنك مضطر، سواء كان هذا الاضطراب وعداً لمجلة أسبوعية أو ببطء القطار الفرنسي بين القاهرة والاسكندرية، وكاتبنا هنا لن يقبض شيئاً من أي أحد، هو فقط يحاول أن يفي بنذر خفي، فهو مضطر أن يكمل ما بدأه، هكذا، بسبب الارتباط الوسواسي الذي أخذه على نفسه، والبركة فيك بقي - عزيزي (بدون "القارئ" هذه المرة)، خاصة وأن المسألة انكشفت بعد أن اعترف الكاتب الأول أنه هو الكاتب الثاني، والآن جاء دورك لتصبح الكاتب الثالث والأخير بإذن الله، وإذا كان الكاتب قد نوه صراحة (!) على أنه هو الذي يتحدث بضمير المتكلم ثم بضمير

الغائب، فإنه لم يفعل ذلك نتيجة لضعف الثقة بذكائك، ولكن - ربما - من باب الحداثة، بون قصد طبعاً، وبدون أن نسميها حداثة، فكما أنَّ قِمة درجات التصوف أنَّ تنزع عنك رداء التصوف فلا تستحق اسم متصوف، فإن قِمة درجات الحداثة هي ألا تكون حداثة، باختصار: إن الحداثة لا تصبح حداثة إذا سُميت كذلك، فأرجوك - عزيزي - ألا تدق على مسألة الضمائر هذه وحدها، فالحكاية مهيبة من أصله، المهم أن تتمسك بأية فكرة تصل إليك وتقبض عليها بيد، لا أقول من حديد، حتى تستطيع أن تكمل، ولكن تقبض عليها جداً والسلام حتى لا تفلت منّا نحن الاثنين، وأنا ما شرحت نفسي ونفسي في مسألة الضمائر هذه إلا لأترك لك مساحة للاختيار، ضمير غائب ماشي، ضمير متكلم ماشي، ساعة كذا، وساعة كذا: ماشي، لا أحد يعرف أين الخير، الاختيار وإعادة الاختيار وإعادة صياغة النص، ونص صياغة الاستعادة هي أصل التجاوز الغائي بالصلاة على النبي.

نرجع إلى القصة التي هي في داخل القصة (أي القصة الوسطى) فقد أن الأوان أن أذكر اسمي البنت وخطيبها الذي لم يخطبها بعد؛ لأنه ليس من اللائق أن أذكر أسماء كل هؤلاء حتى اسم الغسالة واسم ابنها الحقيقي وابنها المفترض، ثم لا أذكر اسم الشخصيات الأصلية - ولا أقول البطل والبطة - أما اسمها فحميدة، صحيح أنه اسم لم تكن تنتظره - عزيزي - بعد كل هذا الوصف، كنت تنتظر - أنا عارف - أن يكون اسمها ليلي، أو لبنى، أو حتى يمني؛ لأن لظلفتها من النوع الحديث الذي تليق عليه هذه الأسماء. أما اسم حميدة فيوحى لك بنوع آخر من الالطمة. حميدة اسم قديم بعض الشيء ولكن له حكاية لأن خالتها هي التي أسمت البنت "حميدة"، ليس على اسم أمها (أم خالتها أي أم أمها أيضاً) وإنما على اسم المرحومة الزوجة الأولى للوالد، والتي انتقلت إلى رحمة الله قبل زواج والد البنت

من أمها، ماتت دون أن تتجب والحمد لله بفضل مرض مجهول، وهذا أحسن، لأنها لو كانت قد أنجبت لتعددت الشخصوس فى القصة التى كادت تصبىح رواية، ونحن عندنا شخوس كفاية الآن، ينفعون لعمل مسرحية زحمة، وساعتها، لو كانت قد تركت ذرية يسمونهم أولاد البلد من "أم ثانية"، كنت لن أستطىع أن تمنع نفسك من الاستطراد إلى مسائل الغيرة القديمة، والشجار، والدسائس ثم الصلح، وأشياء لا تنتهى، والأب غائب فى السعودية، والعلم (اسمه مختار، تصور!!!) ولا هو سائل، ناهيك عن النظرات التى ينظرها الأسطى مختار لزوجة أخيه وهو يعطيها النقود التى يرسلها أخوه بالحوالة كل كم شهر، هكذا أفضل، ماتت حميدة الأولى ولم تنجب، وخلص، مثل قصص المسئول الكبير، ونحن لا ندرى ماذا كانت تقصد الخالة حين أصرت على تسمية حميدة حميدة على اسم المرحومة، فمن المستبعد بدهاءة!! أنها كانت تهدف إلى أن يتذكر الزوج المرحومة باستمرار كلما نادى على ابنته مثلاً، فلربما (لست متأكدا أن اللام الزائدة فى "ربما" هذه عربية لكن شكلها جميل هكذا) فلربما كانت الخالة تقصد أن تقوم بعملية إحلال تدريجى دون أن يشعر الزوج، بمعنى أنه كلما جاء ذكر حميدة قفز إلى ذهنه اسم ابنته لا صورة المرحومة، يا ولدا!!، ولا أجدع علاج سلوكى^(١٨)، هكذا بالسليقة. إذن البنت اسمها حميدة، وعلى فكرة أنا لم أذكر لك أن الست إحسان - زوجة خال الخطيب المزعوم التى راودته عن نفسه - لم تفعل ذلك إلا بعد أن توفى خاله بأربع سنوات، وبالتالي فتسميتها بـ زوجة الخال ظلم لها وللأحداث (كيف للأحداث لا أدرى)، لأنها حين راودت الخطيب المزعوم (أنا متعمد ألا أذكر اسمه إلا بعد فترة؛ تنشيطاً لخيال القارئ)، أقول حين فعلتها كان المرحوم خاله قد قضى نحبه منذ مدة، أربع سنوات ليست قليلة فى عرف البيولوجيا الحيوية، وخصوصاً بيولوجيا الست إحسان، الأصح إذن أن نقول أرملة خاله،

هناك فرق. هذه مُحصَّنة (زوجة الخال) وتلك غير مُحصَّنة (أرملة الخال)، هذه تُرجم حتى الموت، وتلك تُعذَّر بكم جلدة شريطة حضور أربعة شهود بالتمام يكونون قد رأوا كل شىء رأى العين، وتكدوا، كيف؟ لا أدرى. ياما أنت حليم ستار يارب، وبقية الظروف تعتبر فى عرف أى واحد يفهم فى الطبيعة البشرية البيولوجية من الظروف المخففة، وخاصة إذا كانت الطبيعة البيولوجية من نوع الطبيعة التى تطل من كل فتحات ملابس الست إحسان، وحتى من وراء الفتحات، فإذا أضفت إلى ذلك أن الخطيب المزعوم كان شاباً طويلاً أسمر سابقاً سنه، خجولاً رياضياً ممثلاً إلا قليلاً، له حاجبان كثيفان وعيناه الواسعتان تظهران حاجبيه بشكل معين، وبالعكس، (يعنى حاجباه الكثيفان يظهران أيضاً سعة عينيه. ليس أسهل من هذا) إذا أضفت هذا إلى ذاك، وإلى استحالة التأكد من أى شىء بحضور أربعة شهود، لابد أن تعرف أن رحمة ربنا أكبر من كل تصور يا أخى، وأنا لست متأكداً مما حدث بالضبط من هذه الناحية، ولا أريد أن أدخل فى التفاصيل، لأنها تحصيل حاصل، مع أننى أعرف أنك تريدنى أن أحكى لك التفاصيل، لكننى سأعيطك، وفى الوقت ذاته أحاول أن أستثير خيالك، فماذا يعنى يمكن أن يحدث بين الست إحسان التى هى كما ذكرنا إجمالاً، وبين شاب بمثل تلك المواصفات السالفة الذكر، عليك، ولك، أنت أن تتخيل ما تشاء، ولكن كل ما يتخيله خيالك هو مسئوليتك بالتمام، بما فى ذلك إذا تجرأ خيالك ورمى المحصنات، أو غير المحصنات، المسألة كلها تتوقف على نوع وسعة خيالك، أما عن "أنواع" الأخيلة فثُمَّ (!) خيال خبيث، وخیال ملتو، وخیال نصف نصف، وخیال كسول، وخیال جامع (حلوه جامع هذه) وخیال متعثّر فى طوب وزلط الواقع، أما عن "سعة" الأخيلة، فهناك الخيال بالطول والخیال بالعرض، والخیال الأسطوانى، والخیال القوسقزحى، وما دام الأمر كذلك فما الحاجة بالله عليك إلى

إلتصريح الذى تلقاه فى هذا النوع من الأدب الذى يقال له الأدب الصريح، أو أدب الجنس، لماذا يصرون فى هذا الأدب المكشوف على تسمية الأشياء بأسمائها، لا بد أنهم (أدباء الجنس الصريح) يظنون أنك عاجز جنسياً، أو أنك طفل فانتك فرصة تعلّم التربية الجنسية، أو أنك تربيت مكبوتاً فى كُتّاب القرية؛ وهذا لأن أغلبهم أفندية يتعاطون الأدب فى مقاهى المثقفين، ويتصورون أن القراءة عن الجنس هى بمثابة ممارسته، مع أن العكس يمكن أن يكون أصح، لأن معظم الذين تعلّموا فى كتاب القرية، على ما أذكر، ولست منهم بالضرورة، كانوا يتعلّمون الجنس من الحيوانات مباشرة، وكانت المباشرة عملية متاحة على مستويات متعددة، وقد رأوا التلقيح الطبيعى لمعظم أبقار البلدة، بمساعدة الكلاف الذى لا بد أنه كان يجد لذة من تقمّص هذا الثور السنافيرى، كان ثوراً أشقر فحلاً ليس عندك فكرة، وكان اسمه هكذا السنافيرى، حتى حسبت أنه اسم الدلع لرمسيس الثانى، إلّا ولما كانت خالك فاطمة تمسك بالبطّة لذكر البط حتى "يكسرّها"، إلّا لما ذكر الحمام يدور حول نفسه والحمامة تطأطئ رأسها وهو لا يقترب منها وإنما يواصل دوراته الاستعراضية، الآن فهمت لماذا سمى ابن حزم كتابه "طوق الحمامة"، يا خبر هذه كلها من نعم الله الطبيعية على مخلوقاته وإلا انقرضت، فلماذا يستهينون بخيالك هكذا لمجرد تصوّرهم أنك خرجت من كتاب القرية أو أنك لم تتعلّم التربية الجنسية فى المرحلة الثانوية، أما أنا فأنا أثق فى خيالك الخصب، وأتصوّر أنك تستطيع أن تنسج (!) قصصاً لا تنتهى من مسألة "راودته عن نفسه"، بأمانة أن كل عمّاتك كنّ يطلبن منك أن تقرأ لهن سورة سيدنا يوسف للاتعاط المرأة نلو المرأة، وبالتالي، فلن أدخل فى تفاصيل من إياها.

نرجع مرجوعنا إلى الخطيب، وقد أن الأوان أن نسّميه، وفى هذا

وكان معه قلم حبر جاف مصاففة، قراح يكتب، وكل ما فتح الله عليه به حتى هذه اللحظة هو أن هناك بنتاً ملظظة، لها خطيب لم يخطبها، ولم يصممها شاب متهور يركب عربة مسرعة، وخلص. أما الفتاة فأنبواها يعمل في السعودية. أما الخطيب المزعوم فأنبوه مات في حرب الاستنزاف، وأمه تزوجت زواجاً عرفياً، وزوجة خاله، أعنى أرملة خاله راوبته عن نفسه زمان (بعد الفسالة ما علمته اللازم)، هذا كل ما كان حتى الآن.

وكان الكاتب قد قرر أن ينهى القصة لا قبل ولا بعد أن يدخل القطار محطة القاهرة، وقد أعطاه القطار مقلباً إذ أنه راح يسير ببطء ولا قطار الدلتا بسبب إصلاحات في الطريق في الأغلب، وهو الآن لا يعرف كيف يكمل، فيها هو يحاول، قال:

ولمّا تأخر سامى فى التقدم لخطبة حميدة، لست أعرف لماذا(قُطِع) خطر ببالي خاطر الآن تخلصاً من الوسواس الذى ألزمنى بكتابة هذه القصة، وهو أن أحسب التحدى بالساعات لا بعدد الكيلومترات، مضت حتى الآن ثلاث ساعات وربع، وكان المفروض أن يصل القطار فى ثلاث ساعات إلا ربع، فالنذر (الوسواسى) قد تم الوفاء به، وهو لم يكف عن الكتابة من ساعتها، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ عليك أن تكمل الحكاية أنت بشهامة المبدعين، ويكفى هذا، ثم إن هناك سبباً آخر وهو أننى أشعر باقتراب حزن خفى، وأننى لو أكملت بعد ذلك فسوف ألقبها غمّاً، فما رأيك؟.

نعم؟ نعم؟ أنت مالك؟.

أمّا قارئ أى كلام، ألسنت يا سيدى أنت هو نفس القارئ الذى يتحمل كلام الحداثة حين يقولون له: إنك تقوم بدور لست أدرى ماذا، وإنك كذا، وإنك مبدع، وإنك وإنك....فإذا جئت أنا أستسمحك بكل

طيبة أن تساعدني، تقوم تهز لي أكتافك هكذا، طيب أنت المسؤول عن الغم الذي أشم رائحته قادمًا، ثم إن والدتي كانت تكرر أنه "من عمل جميلاً يُتمّه، وإلا تموت أمه"، فهل معنى أن أمي ماتت فعلاً وأني لا أخاف أن تموت ثانية إذا لم أتم القصة، هل معنى ذلك أن أتحرق فلا أتم العمل الذي أقوم به؟. بالعكس، إكراما لها ولحكمتها سوف أتم هذا العمل، وسوف أعتبر أنها لم تمت، وسوف أحرص على ذلك خوفاً على حياتها. ربنا يخليها ويطول عمرها لنا جميعاً!!

خذ عندك يا سيدي:

البنّت حميدة، تعمل في شركة كمبيوتر، وسامي يعمل محامياً تحت التمرين، رغم أن أمّه كانت تصر على ألا يطلع ضابطاً مثل أبيه، كانت تريده أن يكون مهندساً ضاربة عرض الحائط بأنه قسم أبوي، المهم أنه بعد عن الجيش، وأنهى كلية الحقوق بعد تخلف سنتين ثلاثة، ومرتبته شديد التواضع، ومعاشه انقطع ولم يبق إلا معاش أمّه التي تصرفه على زوجها العرفي الثاني (= الزوج البيولوجي المعلن: الثالث) وهو زوج بيّات أيضاً لكن بيّات مرتاحة وليست خطفاً مثل الأول، ثم إنه يختلف عن الزوج البيّات الأول في أنه أصغر عشر سنين (أصغر من الأم وليس من الزوج الأول) ثم هو يأتى مبكراً، ويبقى في المنزل أحياناً إلى ما بعد الظهر ورغم أمانة سامي مع حميدة إذ أنه لم يعدّها أبداً أنه سوف يتقدم إليها. إلا أنها كانت ولا على بالها، والذي في مخها في مخها، وهذا هو الذي جعلها تخرج معه مراراً وتكراراً (!!). المشكلة في المكان، وقد فكّر سامي ذات يوم أن يستعير عربة "الأستاذ" الذي يتمرنّ عنده بعد أن قامت صداقة - ليست معتادة - بينهما، محام تحت التمرين، وصاحب مكتب مشهور في التعاقدات، لكن المسألة صدّف، وثقة متنامية (!!). والثقة التي

تولدت بينهما لم تكن بسبب إتقان كتابة المذكرات القانونية أو حسن لقاء الزبون، وإنما حدثت بمحض الصدفة؛ ذلك أن المحامى الكبير (سأسميه: "الأستاذ") قد أرسل سامى ذات يوم ليحضر له لفافاً ما من أحد المعلمين الممتازين، وكان هذا المعلم الممتاز يعيش - ليس بمحض الصدفة - فى مكان يحتاج إلى خريطة تفصيلية للوصول إليه، فإذا بسامى يذهب ويرجع بالأمانة (اللفافة) فى لمح البصر (!!). [أظنك ما زلت تذكر يا عزيزى مغزى علامات التعجب]. نعم رجع سامى فى لمح البصر وعرف المكان مائة فى المائة حتى لم يعد يستعمل الخريطة بعد ذلك، ومع تكرار ذهابه راحت ثقة الأستاذ فيه تتنامى (!)، بل إن دليلاً آخر قد بدأ فى الظهور وهو أن الأستاذ شخصياً هو الذى أخذ يرفع الكلفة تدريجياً بينه وبين سامى، فبعد أن كان لا يناديه إلا بـ "الأستاذ سامى" أصبح يناديه بـ "سامى"، فقط، طبعاً هذا دليل على علاقة أوثق بلا شك، ولكن سامى لم يستطع الاسم هكذا "حاف" خاصة أمام الزبائن، خشية أن يحسبوه فراشاً مثلاً، لكن حين وصل الأمر إلى "يابو السام" تأكد من رفع الكلفة بينه وبين الأستاذ، وهذا ما جعل سامى يفكر أن يستعير سيارة الأستاذ حتى يفسح فيها "لا - خطيبته" (شئ أشبه بـ "اللا رواية"، أو كما قال) وكان يتمنى أن يوافق الأستاذ لأنه فى الأغلب سيكسب ثواباً كبيراً، لا لأن ذلك سيسهل عملية التقدم للخطبة، فالزواج، وبإخت من وفق رأسين.. إلخ، ولكن لأن مثل هذه الفسحة فى تلك السيارة الفسيحة يمكن أن يساعد سامى فى الهبوط بـ "لا خطيبته" إلى أرض الواقع، أو قل إلى "لحم الواقع"، وهذا لا يعنى أن سامى كان يفكر أى تفكير كذا أو كذا، فالالتحام بالواقع فى الأغلب هو اشتقاق من حكاية "لحم الواقع" التى خطرت ببال سامى بدلاً عن "أرض الواقع"، كله من مادة لحم يلحم، ثم - من وفرة إخلاص سامى - أنه لم يستبعد

أن يهبط هو كذلك إلى أرض الواقع، أو لحق الواقع، أو لظلمة الواقع، وقد يكون هذا دافعاً أن يجعل الذي في مخ حميدة ليس في مخها فقط، من يدري، من ذاق عرف، هذا قول الصوفية ولكن من أين يا حسرة، من أين يمكن له أن يتم هو الآخر ما بدأه خياله؟ أقول لك من أين: (ما زال سامي يحدث نفسه)، فقد فكر يوماً أن يعرض على المعلم أن يقوم بنفس المهمة التي يقوم بها للأستاذ، يقوم بها - في غير أوقات العمل الرسمية - لأساتيد غير الأستاذ؛ وذلك مقابل حسنة محسوبة، وهو محام، صحيح تحت التمرين، ولكنه فاهم كل حاجة، ويا بخت من نفع واستنفع، وهو لن يحتاج - حسب حساباته إلى أكثر من عشرة مشاوير، بعدها، يمكن أن يتقدم إليها، وما قدر يكون، ولكن هذا السيناريو لا يمكن أن يبدأ إلا بعد أن يكون الأستاذ قد وافق على إعارته عربته حتى يحقق قول الصوفية الأفاضل أن من ذاق عرف، وهنا فقط تذكر أنه لا يعرف قيادة السيارات أصلاً، وهو يستعمل التاكسي حين يذهب إلى هذا المشوار بالذات، مشوار المعلم واللفافة، وعلى التاكسي أن يتغير باستمرار، هكذا وصّاه الأستاذ، وقد عمل بوصيته ربحاً من الزمن (!!) ولكن تاكسياً بذاته عرف مواعيده، وأخذ ينتظره وكأن المسألة صدفة، ثم هب أن كل ما تصوّره بشأن الحلول المادية بالجهود الذاتية قد تحقق، فلأمانة هو غير متأكد إن كان سيقدم على خطبة حميدة أم لا. فالمانع ليس فقط المادة التي يعبر عنها هذه الأيام الشباب بتعبير "يكون نفسه"، ولا هو عدم وجود عاطفة كافية، ولا هو أمّه وزوجها البيّات، ولعلّ القارئ بذكائه يحاول أن يجتهد معي لنبحث عن المانع لأنه (القارئ) في الأغلب أصغر مني سناً، وهو أدرى بشباب هذه الأيام وموانعهم، ثم إن القطار، رغم الإصلاحات المعوّقة، ورغم تأخره عن الميعاد أكثر من ساعة، ورغم بطئه، قد اقترب من باب الحديد، ولو أنني تركت

نفسى أحاول تفسير كل مانع ودافع لكان لزاماً على أن أقضى الليل فى القطار، وذكريات فيلم باب الحديد ليوسف شاهين لا تسر (فيما عدا هذا الذى فعلته هند رستم بكل الرجال الذين شاهدوا الفيلم) ورواية السكة الحديد لإبواردا الخراط تخيفك بون أن تكون فيها عفاريت محددة "الهوية" (!!). أنا قلت أكتب قصة وليس أمثّل قصة، ثم إن الخطأ خطأ حميدة لأنها تعتبر سامى خطيبها فعلاً بون أى دليل أو قرينة، كلام هكذا والسلام بون بيّنة، والبيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، ومع أن سامى لم ينكر، إلا أنه قد أقسم ألف يمين ويمين، وحتى بون أن يقسم فالقارئ عارف، وأنا قلت له إنه لم يلمح ولم يصرّح بأى شىء، وأنا شاهد حتى بعيداً عن هذه القصة تماماً، شاهد أن هذا لم يحدث بأية صورة من الصور، ولا بد أن يصدقنى القارئ، فليس معنى أننى تركته يشاركنى الإبداع والبحث عن الحلول أن يشك فى كلامى وفى قدراتى على الخلق، فليفعل هو ما بدا له فى حدود ما سمح له النقد الحديث (وأنا شخصياً لا أعرف هذه الحدود ولست مهتماً بمعرفتها)، كل ما أعرفه هو أننى ينبغى ألا أعامله (القارئ) وكأنه مثل الإناء الأملس من الداخل، ألقى به ما يعنّ لى (ملعوبة !!) وما عليه إلا أن يحتويه. لا، هذا كلام قديم، إن النقد الحديث يلزم القارئ أن يكون مثل الفخار المسامى، يمتص ما يلقى إليه، ثم يسيبه الناحية الثانية بلا أى مانع، والاسم استيعاب، وتمثّل، وكلام من هذا الكلام الجيد الذى يحترم القارئ لدرجة الاستغفال، أما أنا، فلا بد أن أعترف أننى، حتى هذه اللحظة، لم أجد مبرراً كافياً يبرر أن يرتبط سامى بحميدة، ومسألة الحب التى كانت تبنى عليها قصص زمان أصبحت بعد الفيديو كلوب مسألة فيها نظر، فأنت كنت تستطيع أن تجلس أمام شادية تتملّى فيها وهى تسهر طول الليل، "وسهرنا سهرنا سهرنا لحاد الفجر"، وبالتالي تصبح لديك فرصة أن

تحبّها، وبالتالي تحب غيرها، مثلها أو نقيضها، المهم تتعلم الحب بإيقاعه البطيئ اللذيذ وأنت سهران لحادّ الفجر، ثم بعد ذلك أنت حرّ، أما الآن بعد الفيديوكوب، فأنت لا تكاد تبدأ فى حب أية واحدة تليفزيونية تغنى، أو تتصور أنها تغنى، حتى تظهر لك عجلة، أو واحد يكتب، أو حمار بجوار ترعة، ثم تظهر ثانية هذه الواحدة، وتحتار هل هى لطيفة أم سحر رامى أم على الحجار، فكيف بالله عليك يتعلّم شبابنا الحب، وكيف أطالب سامى وهو رائح غاد يجلب اللفافة للأستاذ ويحضّر المذكرات القانونية، كيف أطالبه أو أتوقع منه أن يتقدّم لحميدة بسبب الحب، وهو لا يعرفه أصلاً، كانت أيام. أيام مصطفى لطفى المنفلوطى كان يمكن أن تفسّر أشياء كثيرة بهذه العواطف النبيلة (هم الذين كانوا يسمونها كذلك)، أما الآن فالنبل موجود طول الوقت دون أى عواطف ولا تعب ولا خطبة ولا حاجة، هل يمكن أن يكون العائق - الذى يؤخّر الخطبة أو يمنعها - فى حميدة وليس فى سامى؛ لأننا إذا كنّا افتقدنا الدافع للخطبة، ففعل الأمر يُفسّر بفتور الشدّ الجاذب نحو العلاقة، المسألة جهاز إرسال وجهاز استقبال، ففعل جهاز استقبال حميدة، على الرغم من لظلفتها، هو الذى به خلل، وهذا يلزمنا أن نعرف أكثر عن حميدة، ويطء سرعة القطار يسمح بذلك:

حميدة - كما قلنا - تعمل فى شركة كمبيوتر، وهى مخلصه إخلاصاً فائقاً فى عملها لأنه عمل خاص جداً، ومهم جداً جداً، فهى لا تعمل على الكمبيوتر جامعة حروف مثل كاتبة الآلة الكاتبة، لكنّها مصمّمة برامج، وهذا عمل لا يقوم به إلا شباب أذكىاء جداً، وهم عادة من الذكور، وهو إبداع حقيقى، وفيه قدر كبير من السرقة الذكية، وهى سرقة تنهى عنها اتفاقات الجات فى حين تشجّعها الأمم النامية، ويرضى عنها رب العالمين (فى الأغلب)، وقد استطاعت حميدة -

بفضل الله - أن تفك شفرة برنامج جديد شديد التعقيد، ثم إن هذا البرنامج في صورته الأصلية ثمنه ألف ومائتان وخمسون دولاراً أمريكياً (!)، أى أربعة آلاف وثمانية وستون جنيهاً مصرياً وكسوراً (قبل أزمة الدولار الأخيرة)، فكافأها رئيسها بمائتى جنيه مصرى (!)، وباع نسخاً من البرنامج المفتوح شفرته كما يريد، باعها هكذا عيني عينك، كل نسخة بمبلغ ثلاثمائة وسبعين جنيهاً، وبهذا ردّ بعض ما أخذه منا الاحتلال، وحميدة لا تنظر إلى هذه المسائل، بل كل ما يهمها هو أن تسأل عن برنامج جديد مُلغز، ومُؤمن، لتواجهه متحدية عنيدة، مثابرة حتى تفك شفرته، وهكذا، وهى تحب الشاي بلبن، وتضع فيه خمس قطع سكر مرة واحدة، وربما كان هذا ومثله من أسباب اكتسابها وصف ملظظة، فهو لفظ مكتسب، فلظظتها ليس لها أى جنور وراثية، بل إنهم كانوا يعايرون أمها بأن لها عرقوباً يذبح الطير، وليس معنى انشغال حميدة كل هذا الانشغال بفك شفرة البرامج، وإعداد برامج جديدة، وشرب الشاي "أبو لبن" فائق الحلاوة، أنها كانت مهملة لأنوثتها أو مستهترة بمستقبلها أو كلاماً من هذا؛ ذلك أن جاذبيتها الإنسانية والأنثوية كانتا بعيدتين عن أى تشكيك، وفى يوم من الأيام اقترب منها زميل أثناء انهماكها المطلق فى تحدّى مشكلة لو حلّتها ستقفز بها إلى المعادلة النهائية التى سوف تفك شفرة هذا البرنامج العنيد، وهو ليس زميلها بالضبط، لكنّها تعتبرهم كلهم زملاء، ساعياً، فراشاً، كاتباً، سكرتيرة، كلهم زملاء، المكتب مكون من زملاء ورؤساء، وخلص، وبما أن هذا الشاب الذى حضر ليس رئيساً فهو زميل، ساع لكن زميل، وهو قد حضر كالعادة ليطلب منها شيئاً طلبه منه رئيسه، وهو لم يعلن ما جاء من أجله؛ لأنه بمجرد أن دخل الحجرة، وكانت حميدة منهمكة أشد الانهماك فيما بين يديها، وهو يتراوح فى الوقت ذاته ذهاباً وجيئة بين جانبي

دماغها^(١٨)، وربما لذلك لم يفقدها انهماكها في فك الشفرات والبرمجة أى ذرة من جانيتها الإنسانية أو الأنثوية، ويبدو أن زميلها هذا انبهر بكل هذا، فاقترب منها وأخذ يبخلق في شاشة الكمبيوتر وكأنه يرى صنوق الدنيا، وهو طويل وعريض وأسمر أيضاً، لكنه - لسبب ما - أخذ يبخلق نون أن يثنى جذعه، وإنما اقترب وكأنه يفهم رويداً رويداً، وزاد اقترابه رويداً رويداً أيضاً، على قدر فهمه، وكلما اقترب رويداً، فهم رويداً هكذا، وهى منهمة إلا قليلاً، ثم إلا قليلين، ثم إلا قلائل كثيرة، وكأن هناك تناسباً عكسياً بين رويداً، وقليلاً، أو قل بدقة أكبر إنه تناسب طردى بين "رويداً"، وإلا قليلاً، حتى أصبح الزميل قريباً جداً وهو مازال واقفاً لم يمل برأسه نحو الشاشة، فأحسست، واندعشت، واستلذت، وأستمريت، وأنكرت، وربما تمتت أن يبقى هكذا فى محله من غير "إلا قليلاً"، كل هذا وهى لا تعرف عن هذا الذى ذكره الكاتب الآن، كاتب هذه القصة، شيئاً بالمرّة، كل الذى تعرفه هو أنها فجأة بعد أن كادت تعترف باستسلامها، ماعت نفسها، نعم فجأة، وشعرت بغثيان كأنه نزل صعباً من حلق، فقامت تعدو كالمسوعة خوفاً من أن تنقلب معدتها على الكمبيوتر، ولم تنسَ وهى تنصرف إلى دورة المياه مسرعة أن تعتذر لزميلها هذا، بل تستأذنه أيضاً، وهناك وضعت إصبعها فى حلقها، ولم تتقيأ، ولم يكن فى بطنها غير هذا الشاى بلبن الزائد السكر السالف الذكر، وحين عادت لم تجده فى الحجرة، فكادت أن تذهب تسأل عنه، أعنى تسأل عن الذى كان يريده ولم يُتمّه، تعنى: عن ما كان رئيسه قد طلبه منه، أى منها، أكرر أنها لا تعرف أى شىء من هذه التفاصيل التى حكيتُ عنها حالا، فهى أمور تحدث على الجانب الآخر دون إذن صاحبها، إذ كيف لها أن تعرف أنها "كادت" مثلاً، ثم سواءً كادت أو لم تكد، هى لم تفعل شيئاً، لا هى فعلت ولا زميلها حضر ثانية يكمل، يكمل ما

طلب رئيسه، ولا سامى تقدم لخطبتها، ولا القطار وصل إلى باب الحديد، وحين رجعت إلى أمها ليلاً قالت لها أمها إن أحداً لم يسأل عنها، وكان المعتاد أن يسأل عنها أحد، وهذا غير صحيح، وكانت أمها منهمكة فى إعداد تلك الحلاوة ذات الرائحة الخاصة، وجارتهم أم محمود تملأ المنزل بضحكتها المجلجلة، وأمها مبتسمة ابتسامة "غير"، فعرفت حميدة كل شىء، وسألت أمها عن موعد عودة أبيها بالضبط، وعن طول مدة إجازته هذه المرة لعل سامى يفكر، فابتسمت أمها ابتسامة أخرى غير الابتسامات التى تبتسمها لها وهى ذاهبة إلى العمل، وذكرت لها موعداً ومدة، ويعد أن غسلت حميدة وجهها، توضأت بالمرة، ثم نادت بسرعة على إخوتها الأصغر، ثلاثة صبيان على بنت واحدة، وهى أكبرهم جميعاً، فراحت تسألهم الواحد بعد الثانى عن الواجبات والدروس، وانهمكت فى المراجعة والتسميع والتصحيح، والمراجعة والتسميع والتصحيح، والمراجعة وهكذا.

مرة أخرى - وربما أخيرة - أنذرك عزيزى القارئ أن القصة انتهت، وأن القطار الزاحف تخطى قليوب وأنهم حتى لو جرجروه جراً فسيصل فى أقل من نصف ساعة، فأرجوك أن تعفينى لأننى أشعر شعوراً قوياً بغمّ قادم، وأنت أقدر على الاتجاه بهذه القصة المتعثرة إلى نهاية أخرى، ولذلك أقترح عليك أن تكملها أنت بمعرفتك، أما إذا أصررت كما أنا مضطر استجابة لوسواس لا أعرف تفاصيل مطالبه، فإن المسئولية مشتركة حتماً. ليكن، عن نفسى: أنا لا أملك إلا أن أكمل طالما القطار يتحرك.

نرجع مرجوعاً إلى عمك سامى وهو يحضر اللقافة للأستاذ المرة تلو المرة (!!)، وفى مرة من هذه المرات التى هى تلو الأخرى، وكان سائق تاكسى معين قد عرف مواعيده، وأصبح يتصنع التسكع فى

الوقت الذى ينزل فيه سامى إلى هذا المشوار الخاص، فتكرر ركوبه معه، ثم تصارحا وتواعدا رغم تعليمات الأستاذ، فى هذا اليوم، ويعد خروج سامى من الحوارى إياها إلى الميدان، وركوبه التاكسى وجلوسه فى المقعد الخلفى كما اتفقا دائماً، لأسباب أمنية، لم يكد التاكسى ينطلق حتى أشار لهم أحد المارة إشارة معروفة حسب التقاليد الجديدة لاتفاقيات التعاون المشترك فى مسألة التاكسيات فى القاهرة، ولكن الاتفاق المتين بين سامى والسائق كان يمنع منعاً باتاً ركوب ثالث، هذه كانت تعليمات الأستاذ، وهذا هو السبب فى ارتفاع قيمة المقابلة بشكل واضح، لكن هذه المرة التفت السائق إلى سامى يرحوه، ويبرر رجاءه بأن "المشير" يظهر عليه أنه غلبان، وأنها المرة هذه فقط، ومن الذى سيجعل الأستاذ يعرف، وكلام من هذا. حن قلب سامى غصبا وصاحب ذلك شعور برعب خطير لم يظهر عليه بعد، ركب المشير فى الكرسى الأمامى، ولم ينظر إلى الخلف ولم يحى سامى أصلاً، وطلب بعد قليل بشيء من الصفاقة (هكذا اعتبرها سامى) أن يمروا به على مصر القديمة أولاً - قبل أن يتوجهوا إلى الجيزة، أحسن مستعجل، (سكننا له.....)، فوافق السائق بعد إيماءة لسامى فى المرأة، ثم حدثت الأشياء التى تحدث وراء بعضها بتسلسل قدرى ليس له تفسير، لم يحدث تصادم، ولكن الأشياء التى حدثت كانت داخل السيارة لا خارجها مما يُنشر بطريقة مثيرة مليئة بعلامات الاستفهام فى صفحة الحوادث، ثم إن سامى وهم يستجوبونه فى المستشفى لم يستطع أن يتذكر اسم السائق ولا رقم التاكسى الذى ركبه أكثر من مائة مرة، وكان السائق مثل فص ملح وذاب، والراكب (المشير) لا أحد يعرف عنه شيئاً، ومع أن الطبيب طمأن أم سامى، كما طمأن حميدة التى زارته بالرغم من عدم وجود أى شىء رسمى بينهما، ولا حتى هى تعرف أمه شكلاً، بالرغم من أن

كل هذا حدث، إلا أن اسم سامي انتقل من صفحة الحوادث إلى الصفحة قبل الأخيرة في الصحيفة ذاتها التي نشر فيها المسئول الكبير ذو التسعة عشر "ربيعاً" قصصه الباكورة (!)

المفروض أن أتحدث عن شعور حميدة بشيء أكثر من التفصيل، ولكن ليست عندى أية تفاصيل محددة، ثم إننى فى غم شديد، كل ما يمكن قوله هو أنها: سمعتُ ودهشتُ، وزارتُ، وبكتُ، ورجعتُ، وعادتُ، ودهشتُ ثانية، وسألتُ، وخافتُ وأحسستُ، وتوجستُ وصرختُ، وانهارتُ، وتماسكتُ، ولم تخجل أن تلبس السواد على شاب لا أحد يعرف عن علاقتها به شيئاً، وحين جاء الزميل الساعى الذى "لم" يكمل، يعزّيها، كادت تقفز فى حضنه صارخة، فى حماس له طعم خاص، وهى تسأل وتتساءل: ماذا كان يريد رئيسه بالضبط فى ذلك اليوم، ولماذا لم يُعَد؟ ولماذا لم يُكْمَل (ما طلبه رئيسه)؟ ولماذا أصابها الغثيان فجأة؟

وهكذا انتهت القصة فيما يتعلّق بسامى، والأحسن أن نقفلها أيضاً فيما يتعلّق بحميدة، فإذا لم يتوقف القطار الآن فأنا مضطّر أن أخبركم عن جانب آخر فى حياة حميدة بعيدا كل البعد عن سامى، وعن زميلها ورئيسه، وعن الكمبيوتر:

ذلك أن حميدة كانت تحب الكلاب حبا جما، وكان الذى زاد من حبها للكلاب هو أنها مضطّرة أن تحبهم فى السر. من وراء أمها؛ لأن أمها تكرههم كره العمى، ناهيك عن مسألة النجاسة والحرام والحلال، وبالتالي فإن حميدة لم تعد تجرؤ أن تذكر لأمها أى شيء عن هذا الموضوع، وكانت لا تجرؤ أن تشتري للكلاب الضالة العظام وبعض بقايا اللحم من مرتبها التى كانت تسلمه كله إلى أمها أولا بأول، لكنّها كانت تشتري هذه الأشياء من مكافآتها غير المنتظمة التى لا تعلم

عنها أمها شيئاً، ثم إن الصدف ساقطت لحميدة فرصة نادرة حين لمحت فى فيلا بجوار الشركة التى تعمل بها كلبة صغيرة الحجم شديدة بياض الشعر المتهدل على وجهها وجسمها كله، فتعلقت بها تعلقاً خاصاً جداً، وشعرت نحوها بمشاعر غير مشاعر الشفقة التى كانت تشعر بها نحو كلاب الشارع، أحببتها حباً غير مشروط، وبلا مقابل، فهى - الكلبة - لا تحتاج منها شيئاً ولا تعلم عنها شيئاً، وزاد من عمق العلاقة أن ابنة صاحب الفيلا لمحت حميدة وهى تشير إلى الكلبة فى ود، فلم تنهرها، ولم تعترض، بل تعرّفت عليها، ودعتها للدخول إلى الحديقة وتناول الشاي معها، وقد دخلت فعلاً لكنّها لم تتناول الشاي، وسمحت لـ "جولى"، هذا هو اسم الكلبة، أن تجلس على حجرها، ورفعتها حميدة على صدرها حتى تجرأت جولى ولعقت خدّها فى ود لم يذكرها باقتراب زميلها منها، وإن كان هناك شبه بعيد لا أحد يستطيع أن ينكره، رغم خفاء وغموض جوهره على الجميع.

لو كان القطار لا يزحف بكل هذا البطء لجئنا غماً آخر يقترب، ذلك أنه فى يوم بعد ذلك اليوم، ذهبت حميدة إلى الفيلا كالعادة، لكنها لمحت نوافذ الفيلا مغلقة، فتوقعت ألا تجد "جولى" أيضاً، فهم يأخذونها معهم إذا سافروا، لكنها سمعت نباحاً كثيراً فى الحديقة الخلفية، فاستدارت ووقفت على ركبة السور من الخارج، فإذا بها تفاجأ بجمهرة من الكلاب مختلفى الأنواع والأحجام، والألوان، وكان كلب واحد ملتصقاً بجولى من الخلف، وكان أقبحهم وأجربهم، لماذا يا جولى هذا بالذات؟ كيف رضيت به هكذا وأنت معلقة من مؤخرته كالمشوقة، لا ليس كذلك، حميدة تعرف الكثير عن علاقة مختلف الحيوانات بهذه المسألة، صحيح أنها رأت بعض ذلك وهى تزور خالتها فى البلدة ولكن هذا شىء آخر، كادت تخاصم جولى عتاباً، لماذا يا جولى؟ لماذا هذا بالذات، هكذا؟ لماذا يا حبيبتي؟ ولما لم

تستطع أن تكمل الانتظار ولت وكأنها تجرى، وهي لا تفهم لماذا تركوا جولى وحدها هذه المرة حتى ينتهز الفرصة ذلك النذل وسط كل هؤلاء الشهود الحاقدين، ولماذا النوافذ مغلقة؟ ولماذا البواب القديم غير موجود، وتحسست خدّها وكأنها تريد أن تتذكر جولى الأخرى التى وضعتها على حجرها والتى لعقت خدّها، وكانت وهى تمسح خدّها لا تدرى إن كانت تتذكر ذلك الاقتراب أم تمحو آثاره. وفى اليوم التالى سارعت إلى الفيلا لعلها تجد بعض الإجابات على كثير من الـ"لماذا" السابقة، وإذا بها لا تجد "جولى" أصلاً، وقد سألت الشخص الذى حل محل البواب، والذى بدا خفيراً أكثر منه بواباً، سألته عن أهل البيت، وعن جولى، ولم يفهم ماذا تعنى بجولى، وحين شرحت له أنها تقصد الكلية البيضاء الصغيرة أجاب: أما عن أهل البيت فقد سافروا، وهو لا يعرف إلى أين، ولكن الذى يعرفه أنهم لن يرجعوا لأنهم باعوا الفيلا لناس من بلاد غير البلاد التى سافروا إليها، وفى إصرار خائف حاولت أن تستزيد، فأضاف الخفير على مضض ومع شيء من الدهشة التى لا تخلو من شفقة، أن أصحاب الفيلا سافروا إلى بلاد الخواجات البعيدة وليس الخواجات الذين نعرفهم هنا ويحضرون للسياحة مثلاً، وأنهم باعوا الفيلا لناس فى السعودية لا يعرفهم رغم أنه الخفير تبعهم، قالت مقاطعة: "السعودية عند بابا؟" لكنها لم تنطق بما قالته، فقد كانت متلهفة على بقية الإجابة التى تتعلق بجولى، أكمل الخفير متعجباً أنه أعطى الكلية لسائق عربية القمامة وأعطاه الذى فيه القمامة ليسرّبها فى أبعد مكان ممكن، فهى عبء عليه لا تأكل ما يليقها ولا تصلح للحراسة، ولا لأى شيء، ولا بد أن أصحاب الفيلا الجدد من السعوديين لا يطيقون سيرة الكلاب أصلاً عملاً بالسنة، بلعتها حميدة فى صمت وشكرته. لكنها رجعت تسأل الخفير هل يعرف إلى أين اتجهت عربية القمامة، فلم يرد مشفقاً غير فاهم على ما يبدو.

لاح رصيف قطار محطة باب الحديد فى الأفق، وفى الوقت ذاته

لمحت حميدة بجوار صندوق القمامة كلبة صغيرة بيضاء في حجم جولي، معقول؟. هكذا بسرعة؟. هل يمكن أن تقبل جولي هذه البقايا وهي التي كانت تشمشم في الهامبورجر الذي كانت تشتريه لها حميدة خصيصاً بعد أن عرفت أنها تحب رغم أنها هي شخصياً لا تأكله؟. معقول هذا؟ هل هي هذه؟ هي؟. ليست هي؟. هي؟. ليست هي؟. لا تأكله؟. لا مستحيل! لا بد أن تتأكد، ولن تتأكد إلا إذا أمسكتها وما يحدث يحدث، فإن عرفتها واستسلمت لها كانت هي، وإلا..، وقد حدث ما هو "والا....".

عضة مثل طعنة خنجر مشرشر مسنون، ثم ماذا؟.

ستون حقنة تحت جدار البطن في مستشفى بجوار قصر العيني يومياً، ثم يوماً بعد يوم،
ولا فائدة.

توقف القطار تماماً، وغمرني حزن لا مثيل له، له طعم مختلف عن كل أحزني السابقة، وما أكثرها، وكلما ذكرت نفسي أنني أنا الذي اخترعت كل هذه الأحداث حتى لا أكف عن الكتابة إلا عندما يقف القطار، وأن المسألة كلها كراسة بجنيه حضرت بمحض الصدفة، وقلم جاف، وغيظ مزدوج ووسواس سخي، وأنه لا حميدة ولا سامي قد وجدا أصلاً، كلما كررت ذلك لأطرد كل هذا الحزن، وجدته يزداد أكثر، حزن شديد شديد بحق،

ولم أستطع أن أميز على من حزنت أكثر، على سامي أم على حميدة؟.

يا ساتر يارب.

لم هذا؟.

الجزء الثانى

مقال فى قصة .

قصة فى مقال .

اللعبة والملعب

التقرير.. والتوقيع^(١)

- ١ -

الصليب الأبيض معلق خلف الظهر لتمييز الجنس الأدنى استعداداً للانقضاض، لكن الوجه لا ينم عن ألم مفرط كما كنت أتخيله منذ سمعت الإذاعة تبث هذا العار، يتلاشى الألم إذا زاد. لماذا يتألم الناس إذا كان الألم لا يقتلهم، ولا يدفعهم إلى القتل؟ (الآن - وليس بعد؟)

- ٢ -

أُمْسِكْ بالقلم لأكتب التقرير. قاضٍ أنا؟
العدالة معصوية العينين وأنا مُفْتَحُهُمَا
محنة أن يُضطرَّ المحكَّم أن يعرى ضميره، أن يتعرى أمامه، لا أستطيع أن أوقعَ على هذا الشيء. كيف أوقع على شيءٍ ليس بشيء؟

بمجرد أن أمسك بالقلم تتدلى من السقف بدلاً من النجفات النادرة، أقفاص من طائرات الهليكوبتر المغيرة، سجون معلقة، تتراقص الصلبان البيض فوق الصفحة السوداء، فتستحيل الكتابة من حيث المبدأ، ألمح أحد السجناء الفلسطينيين في الأقفاص وكأنه يلوح لى بيده، مودعاً أو متوعداً، يتحدثني أن أوقع، كل شيء يتحدثني، يتحدثني شخصياً هذا الذي يجري يتحدثني وعى البشرية ويبصق في وجه تاريخ الإنسان جميعاً.

السلام حتمي، والتقرير الفردي حتمي كذلك.

كيف حكم السادات أنها آخر الحروب؟ نحن نستطيع - بالكاد - أن نحدد تاريخ بعض ما فات من حروب، فكيف استطاع هو أن يحدد آخرها؟ ربما كان يقصد آخر الحروب الذي سيخوضها هو، ومع ذلك فقد خاض حرباً قذرة، قُتل فيها جداً. رحمه الله.

أتمنى لو أستطيع أن أحذو حنوه فأقرر أن هذا التقرير هو آخر التقارير؟ حتى لو كانت نهايته تنتظرنى.

-٣-

ليكن.

المجاملة واجبة، والكون لا ينصلح دفعة واحدة، والكل فى الإساءة سواء، الظلم الشامل عدل... والأبحاث كلها مثل بعضها؛ إما كلام فارغ أو كلام مفروغ منه، وأنا مالى؟ مالى أنا؟ أنا عضو فى اللجنة الموقرة يا أخى، أمّا بارد.

جرُّ يا غراب وأفسد لن ترى أحداً.. إلا مُسيئاً وأيّ الناس لم يجرُّ. يا شيخ المعرفة؟ هل هذا وقته، تبرر لنا الظلم وأنت لم تظلم إلا نفسك بكل إباء

الصليب أبيض والسجون معلقة والبشر هنا وهناك فقدوا الشيء. الباحث الذى ينتظر ملء هذه الأوراق ليترقى ينظر لى فى لهفة غيبية، ولا يجرؤ أن ينظر فى السماء ليرى ما أراه، قال رب لم حشرتني أعمى، وقد كنت بصيرا أنا لم أحشُر شيئاً فى دماغ أحد، هم الذين حشرونى فى هذه اللجنة حشرا بحكم الأقدمية، ملعون أبو الأقدمية، والأكثرية بالمرّة.

مجتمع الرفاهية، المجموعة الاقتصادية الجديدة على وشك التنحى، العقل الشاب، شاب وانتهى، لم يكن شاباً أبداً.

ما الطزاجة؟ أين الدهشة؟ بحثٌ علمى بلا طزاجة أو دهشة ينبغى أن يبحث له عن اسم آخر؟ عقول مخزونة فى برودة غير ملائمة. انتهى عمرها الافتراضى، عقول لا تصلح للاستعمال الأدمى، لماذا إذن؟

لماذا التقرير؟. ولماذا الفردى؟. ولماذا الجماعى؟ ولماذا التوقيع؟

- ٤ -

لست مثل غيرى، هكذا أزعم، يلاحقنى ظلى أينما تلفتُ، يلاحقنى باستمرار، يحاسبنى، يقهقه أحيانا قبل أن أرد، يريد حلا حاسما: "الآن"، دائما "الآن"، وليس بعد، أطلب التأجيل.. يرفض.

"توقيعى" يشحذ السكين التى تذبح الأطفال، يُحكم قفل السجن المعلق المدلى من الهليوكوبتر.

متى أنتوقف عن كل هذا؟.

- ٥ -

لا مفر من التكيّف، التشكّل، التعقّل، نحن دولة نامية. وأى شيء يكفى.

أمسك القلم وأهم بالتوقيع، أحس بسائل بارد لزج يتسحب على ساقي اليمنى حتى فخذى، أربع فأقوم كالملسوع، ألتفت فيخيل إلىّ أنى أتخيل، أمد يدي أتحمس فتأكد للزوجة وأتأكد أنه خيال أوقع من الواقع، تغمر أصابعي للزوجة لكن دون سائل ودون دماء.

أحسست - فى جزء من ثانية - أن ساقي قد غاصت فى بركة دماء تجمعت من أشلاء أطفال بين الثالثة والسادسة، كانوا يغنون - قبل القصف مباشرة - "وحوى يا وحوى، إياحه... وكمان وحوى إياحه"، وحين قالوا ".. وحوينا الدار" دمت عيناى، يتراجع خيالى السوداوى السخيف، لكن للزوجة لم تفارق أصابعي التى تتجمع بجوار بعضها فى كتلة هلامية هى الأخرى تنتقل إلى القلم فتعجز أصابعي عن الإمساك به، أتبين اختفاء أصابعي، كتلة رخوة من لحم مدهن، كيف أمسك القلم بلا

أصابع؟. داخلني فرح أقرب إلى الخجل - حين تصورت أن الامتناع عن التوقيع يمكن أن يبرر بأسباب مرضية. ليس على المعاق حرج.

- ٦ -

لا بد من التوقيع، حتى لو وجهوا إلى مباشرة تهمة قتل أطفال لا أعرفهم، ليكن التوقيع بماء النار أو بمسحوق النابالم، سأوقع هذه المرة بشرط ألا يتكرر مثل ذلك أبداً، لكنني على يقين أنني بمجرد أن أوقع سينسى الكل كل شيء، كل شيء، لا بل سيكتفون بنسيان الجانب المؤلم من كل شيء، وخاصة الدماء والأطفال، وصوت تكسير العظام، وإهانة الشيوخ، وجرح حياء العذاري، ومنظر الأشلاء.

قال يعني كانوا تذكروا أيّاً من ذلك أصلاً؟

ما هذا الربط الفارغ؟. البحث العلمي شيء، والحرب شيء آخر. لا بد أن أفيق وأن أوقع، وأن أصدق أنهم قبلوا شروطي ولو مستقبلاً.

عيونهم مركزة على القلم والورق ومكان التوقيع، وافقوا على شروطي دون أن ينظروا فيها أصلاً، اتهم أنهم يستحيل أن ينسوا الشروط ماداموا يحتاجون توقيعى.

أقاوم رعشة يدي وقد تخلّقت أصابعي من كتلة اللحم الرخوة اللزجة، أهم أن أوقع، تقفز ابتسامات التهاني فوق برك الدماء وتطمئن وجوه الباحثين النجباء أنني عقلت.

تُشَلّ أصابعي عن الحركة مع تتميل متسحب بطنى كله إغاضة في استرخاء يحيط به غثيان لا يزيد، ولا أتقياً.

-٧-

كان على ألا أقبل، كان لا بد أن أعتذر من البداية، ولكن من أدراني بتوقيت ظهور طائرات الهليكوبتر هذه هكذا الآن وهي تحمل

أقفاص السجن المدلّى هكذا؟^(٣)

وهل ثمَّ جديد؟.

لم يحدث إلا أنهم جَسَّوْا الجارى فعلا، الجارى فى كل مكان وليس فقط فوق سماء جنوب لبنان.

أستقبل.

لا بديل.

يفرحون: تُمصمَص الشفاه، يزداد عدد هذه الأبحاث، والأطفال المبتسرين، تتكسَّر كرات الدم الحمراد والبضاء خجلا وانتحارا، تتراكمُ الأرقام، والأشلاء، وصفحات الدوريات، وبقايا الكلمات، و الوظائف الشاغرة على الرغم من شاغليها، وجثث الأحياء، لا أستطيع أن أتَنفَس من تحت كل هذه الأكوام اللزجة ذات الغازات إيهاها، يشكّون فى سلامة عقلى مع قليل من مشاعر العطف وكثير من كلمات الرثاء، جنباً إلى جنب مع لسع سياط الشفقة من بعيد دون أن تظهر الأيدي الممسكة بها.

أرفض...؟!.

لا يَرَقى، أبحاث هذا الباحث لا ترقى. ليس لأنها أبحاث سيئة ولكن لأنها ليست أبحاثاً أصلا.

يرفضونى.

شخصٌ صعبٌ، دعوهُ.

شخص لا يوافق إلا من وافقه، دعوه.

دعوه... دعوه.... دعوه.

يا ليت!!!!

لا هم يدعوني، ولا أنا أدعهم.

—

دعوه، دعوه، دعوه.

— ٩ —

"أناور...؟"

فرق بين التكتيك والاستراتيجية.

هذا هو.

أوقع هذا "التقرير" "الآن" حتى يحين الوقت الذي أملك فيه مقاليد

السلطة فأغَيِّر كل شيء، كرسي السلطة - حينذاك - سوف

يسمح لي بتعديل الكون بما في ذلك أنظمة البحث العلمي

وقواعد الترقية، وساعاتها أرفع عنهم الصليب الأبيض وأطلق

سراح سجناء الأقفاص المعلقة في الهواء، وأيضاً المعلقة على

الأرض، وهكذا أحرر الأرض المحتلة؛ حين أحرر النفوس

المحتلة، وأنا أتحدى كل شرور العالم المتخطرس، والعلم

الزائف، والعلم الرديء، والعلم "كنظام" العلم والعلم اللاعلم.

كلام فارغ، حتى هذا الذي أتمنظر به أمام نفسي الآن: كلام فارغ،

ليس تماماً، سيحصل.

.. متى؟

بعد سنة؟ عشرة؟

وحتى ذلك الحين: كم طفلاً سوف تنتاثر أشلائه؟. وكم باحثاً سوف

تفسد أخلاقه ويتفسخ عقله؟.

كيف سيكون كل شيء بعد أن ينمحي كل شيء.
متى؟.
لا..

- ١٠ -

هأنذا أضيف إلى ندالة التوقيع جبن التبرير.
الأشرف والأحزم أن أوقع دون غنج قبيح.
أن أشارك في الجريمة علانية وبشجاعة الأندال خير من أن أضحك
على نفسي وأؤجل إلى مالا نهاية.
"أوقع" دون تبرير.
أوقع.. دون تكتيك أو استراتيجية.
أوقع.

وأنتظر دورى لتسليم بيتى ووعبى وعرضى لصاحبهما المتغطرس،
رافعا ذراعى الانتئين إلى أعلى.
لم يعد عندى أى شيء أبيض يمكن أن أرفعه.

...والو!!^(۶)

-٨-

قالها الرجل الواقف خلفه: "ولو...!"

تلفت السيد العظيم في فزع كالموت ودار برأسه يمنة ويسرة حتى كاد يكمل دورة كاملة، فانزعج المهنتون الذين كانوا يملأون الغرفة الواسعة كالقاعة أو البهو، وتلفتوا يمنة ويسرة - أيضا - في استغراب لم يجرؤ أن ينتقل إلى مرحلتى الدهشة فالتساؤل، ولكن سرعان ما عاد "العظيم" يلتقط ابتسامته الواسعة التى سقطت منه فى دورة الفزع، أحكم وضعها على وجهه وقذف بكل وجوده وسط موج الأحضان المتدفق، كان يتمنى ألا تفرغ الحجرة أبدا حتى لا ينفرد به ذلك الكلب الخفى، ذلك الحقوق الذى لم يعد يملك إلا أن يعوى كالأذنب الضال، ومن خلف ظهره، ذلك الجبان.

- ٢ -

انطلق مندفعاً من الحجرة البهو قبل أن تفرغ تماما - ومر سريعا صائحا مبتهجا يلقي قبلة هنا وأمرأ هناك، غاص فى جوف عربته الفارغة، وحين انطلقت به تمنى لو كانت مكشوفة حتى يلقي التحية ذات اليمين وذات اليسار مثل الغزاة العائدين من قهر المدن المحاصرة، وحين سمع صوت "الكلاكس" متغيرا مخنوقا شخط فى السائق شخطة كبيرة متسائلا، فاعتذر له هذا بدوره بأن "قردة" "الكلاكس" قد فسدت وأنه لم يتمكن من إصلاحها بعد، فأمره بضجر مشوب بخوف مجهول ألا يضغط عليه أصلا لأن الصوت الأعور يزعجه.

أطاع السائق حتى كاد يقتل طفلا مرق أمام السيارة فجأة.

- ٣ -

نظر في الساعة الرقمية في "تابلوه" السيارة، ملعون أبوها، رقمية؟ لماذا رقمية؟ بدعة حقيرة!.. الأرقام تقفر بغير حياء، وحتى النقط البينية تضيء وتنطفئ بسرعة مذهلة بين القفزة والقفزة. اختراعات سخيفة تضطر الواحد أن يحسب كل شيء، وإذا ما حسب الواحد كل شيء، فعليه أن يعمل حساب كل شيء، كل شيء دون استثناء، يعمل حساب كل شيء قبل أن ينتهى كل شيء: كل الخيوط فى يده، وأصوات الصفوة تدفئه، وأكف الأحبة والخائفين تملأ أذنيه دون تمييز، ولم يبق شيء ليس فى متناول تحكمه إلا الزمن: ٥٤ : ١١، ٥٥ : ١١، ٥٦ : ١١، ٥٧ : ١١.

صاح فى السائق:

- والساعة؟

أجاب السائق وقد أشاح بذراعه كلها بعيدا عن النفير "الكلاكس":

- مالها يا سيدى؟

تراجع السيد بسرعة قبل أن يحتج على أنها "تمشى"، وتمهل حتى يتمكن من تغيير لهجته وقال:

- مُقَدِّمة.

والواقع أن الساعة لم تكن مقدمة، بل إن السائق كان يفخر بها حتى يزعم أنه يضبط عليها ساعة الجامعة، ومع ذلك لم ينبس حتى عاد السيد يصيح:

- ألم تسمع؟ أصم أنت؟

لكن ساعة الجامعة دقت فى المذياع الخافت بالصدفة فطابقت

الساعة الرقمية بالثانية، فحاول السائق ألا تلتقى عيناه بعيني سيدة في المرأة، فإذا بالأخير يصيح وكأنه يكلم نفسه:
- ولو...!!.

لم يرد السائق، ولم يفهم، وسقط الرجل في داخله حين تذكر أنه سمع اللفظ ذاته هكذا بالضبط، اللهجة ذاتها، الصوت ذاته، قالها له الرجل المجهول في البهو الفسيح، ذلك الرجل القابع في الخلف والذي لم يره أحد.
فامتقع وجهه.

- ٤ -

دخل البيت متأخراً، وكانت الأسرة الصغيرة مجتمعة تشاهد آخر مشهد في فيلم نادى السينما، كانوا يلْبسون الجندي "سلوفيك" الطاقية السوداء استعداداً لإعدامه بعد أن أصر على أن يقول الحقيقة البسيطة دائماً، تلك الحقيقة التي جعلت سلوفيك يعترف بخوفه وإصراره على الهرب رغم كل التحذيرات التي نبهته إلى إمكان تجنب ذلك بقليل من الكذب المشروع والتظاهر العام، تذكر أنه شاهد هذا الفيلم من سنوات قبل أن يصبح عظيماً يشغل منصبا عظيماً، وأنه بكى - حينذاك - على إعدام هذا الجندي الطفل بكاء قويا غسل روحه فتهجد لربه، أخذ يبحث عن دموعه القديمة فلم يجدها ولم يجد بديلاً عنها إلا مزيجاً من الغيظ والخوف والغرور، لمح ما يشبه دموعه القديمة في عيون ابنته، وهو عاجز تماماً التام عن مجرد مشاركتها، فأغلق التليفزيون في عنف في اللحظة ذاتها التي أطلقوا فيها الرصاص على الجندي "سلوفيك"^(١)

الذراع...والحزام !!^(٥)

- ١ -

تمتد الذراع الأفعى إلى حيث لم أحتسب، تتسحب المياه الراكدة فوق المجرى المختبىء فى ثنايا الستر، تلصقنى اليد الأخرى على قفاى، يتنخم صوت خشن بون توقف حتى أتبين أنها قهقهة تصدر من أمعاء مخمور لم يتقيأ، يبصق على وجه ابنتى النائمة فى حجرى قائلاً:
كله بثمانه.. والذى عاجبه.

- ٢ -

الممثل الأكبر يدهن شعره المصبوغ بشحم نتن، يتحدث عن العدل القاتل والرد الملعوم، وصدر تشريع أحدث لتقنين النذالة والوغدنة الموجهة، تحت أسماء حركية تحتفظ بشفرتها فى ملفات مجلس الأمن السرية التى لا تفتح إلا بعد انقراض الإنسان بمائة وخمسين سنة ضوئية.

أى والله.

أو كما قال.

- ٣ -

أتقيأ شعيرى، تتناثر أوزان قصائده حجارة من سجليل تلطم وعيى، أفتح درج مكتبى لأبحث عن نتائج آخر بحث علمى لم أفسر بعد نتائج، أرقامه مرصوفة فى جداول معقدة، يشغلوننا - طول الوقت - بهذا العبث الدائر حول مسائل لا تهمنا، ولن تهمنا، جزئيات الجزئيات، أعثر مصادفة على عقد زواجى فأخفيه بعيداً خشية تمزيقه، ألعن ميثاق حقوق الطفل، والوصايا العشر، وإعلانات العمرة السياحية.

- ٤ -

أخجل من مجرد التفكير هكذا، لا أجرؤ أن أتطلع في وجه حفيدي،
يستدير نائماً - يخفى وجهه في رحم وسادة صغيرة، ليست
نظيفة، ألعن الانتخابات والصحف وأبراج المساكن والمدن
السياحية وأسعار الدولار وأطمس إحساسى عمداً إذ أخشى
أن يتسرب صوت أذان، أو أريج وردة، أو ضوء فجر، عبر مسام
غارقة لم تطمس بعد.

ما عاد يجوز.. ما عاد يجوز..

- ٥ -

فرضُ كفاية؟ لا يا شيخ !!
أظن كفاية كل هذا، حتى بعض هذا هو يكفى وزيادة،
بل فرض عين لا يسقط أبداً.
لا يُسقطه أن تحارب كل الأجنة في بطون أمهاتها.
لا يسقطه أن يتبدل الناس غير الناس.

العار يصبح عارا أبشع إذا عبثت به عتمة الذاكرة أو مؤتمرات
القمة أو أقوال الصحف أو إعلانات القرى السياحية الجديدة.

- ٦ -

سوف أقبل الدعوة، هذا هو رقم تليفون قريبي الذى كان يعمل
بالمخابرات، يكرههم أكثر من كراهيته لذنب مسعود يجرى
جائعا فى روضة أطفال، سوف يدلنى على نوع المتفجرات
وطريقة التشغيل، لابد أن تكون الزيارة "العلمية" الثالثة أو
الرابعة حتى يطمئنوا، زملائى حسنو النية مهدوا الطريق، هذا

هو التطبيع الذى أريده، الأسس النفسية للتفاوض الدولى (!!!).
 ليكن بحثاً علمياً يحتاج إلى مقابلة الصقور والحمائم مجتمعين،
 سيكولوجية العلاقات الحازمة الإثنية، (فسرها أنت على
 مزاجك، كله محصل بعضه) "كاهلشا رونميريزين.. دهلك"،
 ماذا أعنى بذلك؟ وكيف تنطقها؟ أنت مالك أنت يا بارد؟ لماذا
 هذه بالذات التى تريد أن تفهمها، كل لغاتهم هكذا، هذه
 الكلمات أوضح من لغة المفاوضات البناءة والمثمرة، دائمة
 مثمرة وبناءة.

الحزام رقيق السمك تماماً، والمواد بلاستيكية جديدة لا تستطيع أن
 تكشفها آلات الفحص حتى الحديثة منها.

التحكم من خلال قلم حبر جاف

أثناء النقاش شبه العلمى المختبئ فى ثنايا التطبيع، اتَّجَرَّبْ بى -
 فيهم.. معلنا وصيتى فى مؤتمر غير صحفى.

- ٧ -

أنتقل عبر الحاجز غير المرئى، أخترق نفقا طويلا ناعما وكئنى
 أسبح دون حراك، أخرج منه فتتولد لى أجنحة من مادة
 سحرية، أشعر أنى أخف وزناً وأن الطيران اللولبى الصاعد
 سوف يدوم.

- ٨ -

هذا الثقل الذى يدب فى أطراف أصابع القدمين، يتسحب إلى
 الساقين فالجذع، يجذبني إلى أدنى فأدنى، أهبط - غير
 مصدق - فى رعب ساحق، لماذا؟ ألم أفعل ما ينبغى؟ ألا
 يكفى هذا تكفيراً عن قعودى وتعلى؟ لم أفتح مظلة الهبوط، لا

أنا أمتلك واحدة، ولا أنا أريدها.

أحاول أن أفيق مرتين بلا جدوى.

لا أعرف السباحة والبركة أسنة بلا قاع، على الرغم مما بدا لى من
أننى سوف أتخطم فوراً فوق "أسفلت" القار المسلح.

أغوص مختنقاً ببيطء بسبب زئبقية القوام لمنقوع العار والمرارة.

- ٩ -

لم تكتب سناء المحيدلى قصة،

لم تقرض شعراً،

ولا خطبت خطبة عالية الصوت بما يشبه البحث العلمى فى مؤتمر
عالمى يتجشأ أرقاماً جوفاء وهو يستمنى.

- ١٠ -

لا أجد عذراً أنتحله.

لا أستطيع النظر فى وجوه أحفادى.

عنيماً يتوارى خجلاً من استمراره حياً.

- ١ -

دخلت الطفلة حديثة العهد بالمشى إلى حيث كانوا، فراقها منظر الصفوف المتراسة، فأخذت تتأمل الجميع، إلا أنها سرعان ما ضجرت من أن أحداً لا يتحرك من مكانه، وتذكرت أيام أن كانت مُقعدة بلا حول، فمدت يدها تحاول تحريك الجمود فإذا بالجميع ينطرحون أرضاً، فزعت في البداية ولكنها عادت تتأمل آثار ما كان، واحتارت: أى منهم استلقى على قفاه، وأى منهم انكفأ على وجهه، لم تطل حيرتها إذ أنها سمعت صوت أقدام ثقيلة تقترب، فانزوت في الركن الأبعد.

- ٢ -

حدث ذلك بعد فترة قصيرة من تلك الأحداث التى يذكرها أهل الاختصاص فى ترتيب رتيب، وينساها سائر الناس وكأنهم يفعلون ذلك بقصد عنيد، والأمر لا يحتاج إلى تكرار الرواية، لكن للتاريخ مطالب غير مفهومة، فتم تحديد المواقع ومراجعة الأدوار السابقة، والتأكيد على ضرورة سلامة البدايات حتى لو كانت محفوظة، وكان فى مقدمة الصفوف جنديان اثنان، وعلى الرغم من أنهما كانا من لونين مختلفين إلا أن الاتفاق كان أن يكونا معاً حتى تلحق بهما - أو بأى منهما - سائر القوات كما تقضى الأصول.

قال الملك للوزير:

- دبرنى يا وزير.

قال الوزير:

- التدابير لله يا ملك.

سأل الملك فى استطلاع:

- ألا نبداً الآن؟-

قال الوزير فى أدب ظاهر:

- عفواً يا مولاي.. الأسود يؤخر فى العادة.. هكذا الأصول.

بدت على الملك بعض علامات الاستياء وعلق قائلاً:

- ولكن لم تَمِثْ ثقل لى ذلك من الأول لأغير لوني؟. ألا تعلم أنى أحب

المبادأة لأمسك بزمام المواقف؟.

مال الوزير عليه وكأنه يُسر إليه:

- ليطمئن جلالكم، فلقد تلقينا وعداً أن الذى يلعب أخيراً يكسب

أكيدا.

هن الملك رأسه، ولكن يبدو أنه لم يقتنع تماماً، تأكد ذلك لأن شفثيه

كانتا قد مُطِّتا بدرجة طفيفة لا يلحظها إلا متخصص، غير أنه

قال:

- الأمر لله، قل له يبدأ من فوره.

التفت الوزير إلى الناحية الأخرى ونادى صائحاً:

- يا أهل الديار... الدور عليكم.

- ٣ -

نظر الجنديان إلى بعضهما البعض وأخذا يعزمان على بعضهما

البعض بالبداية، لكن أحداً منهما - يبدو من فرط الذوق أو

الخوف أو بعد النظر- لم يتقدم خطوة واحدة، وساد صمت

مثير.

- ٤ -

وكان أن همس فارس الميمنة لجاره:

- أين نحن الآن؟.

- والآن.. الأمر لجلالتكم.

نشر الملك القرطاس أمام عينيّه بعد أن ارتدى منظار القراءة المدلى فى سلسلة حول رقبته ونظر فيما يحوى القرطاس ورد فى حدة:

- ماذا تعنى؟ حتى لوصحّ كل هذا فأنا مالى؟.

رد الوزير فى فداء مشروط:

- نحن جميعاً فداك يا مولاي.

قال الملك فى اطمئنان خائب:

- هذا هو... هذا هو... ليكن.

شكره الوزير وهم بالتراجع بظهره، ثم انحنى تحية نصف نصف، وفجأة زادت انحناءته حتى لامست جبهته - مع كل الجباه وبعض الأفقية - وجه الأرض.

ولم يلاحظ أحد أن ذلك كان إثر دخول الطفلة الحجرة كما ذكرنا.

- ٧ -

اقترب وقع الأقدام من مسمع الطفلة فازدادت احتماً بالركن الأبعد.

- ٨ -

دخل الرجل الكبير إلى حيث كانت المعركة، فراعته منظر الدرجة والخلط والضياح وكل الجباه وبعض الأفقية على الأرض.

أخذ يزفر وهو يكلم نفسه: "لعن الله أبا الكل، من فعل هذا يا أوغاد، ألا أستطيع أن أكمل دوراً واحداً فى هذا الجو الزايط".

- ٩ -

ازدادت الطفلة انزواءً وانكششت على نفسها حتى كادت تختفى بين
شنيات كرانشى الفستان القصير.

- ١٠ -

عاد الرجل إلى صياحه: "والأدهى يا كلاب أنى لا أعرف كيف كان
وضع القوات قبل وقوعها، ثم إنى لا أذكر من الذى انتصر على
من... رغم أنى ألعب نفسى".

- ١١ -

اهتز جسد الطفلة من فرط محاولاتها الإمساك عن الضحك، ثم
تسحبت فى صمت وهى لا تتمالك تمام سيطرتها على نفسها
حتى كادت تخرج (وفى رواية أخرى: خرجت) منها قهقهة
مكتومة أشبه بانثار صوت قلة تتدحرج على أرض طينية دون أن
تكسر، لكن الله ستر فلم يسمع الرجل شيئاً إذ ظل يروح
ويجىء فى سخط باد، فاستمرت الطفلة تتسحب كاتمة
ضحكتها أكثر حتى انصرفت بسلام تماماً.

- ١٢ -

توقف الرجل طويلاً ناظراً إلى فلول القوات ثم جلس فى تصميم
جديد وأخذ يعيد تنظيم الصفوف وكأن شيئاً لم يحدث.

قال الملك للوزير:

- ماذا يجرى يا وزير؟

قال الوزير فى يقين:

- دور آخر يا مولاي.

كان المؤتمر العلمى عالمياً جداً، الراقصة تتلوى، والحفل هائض، والمناقشات تجرى على الموائد بمنتهى الجدية والحماس، جدية أقوى وأصدق مما كان يجرى فى قاعات المحاضرات حيث تلقى الأبحاث، والمشاريب تحرك الجمود فيزداد التقارب بين القارات الخمس، دون اعتبار لاحتمال اكتشاف أى قارات مجهولة أخرى.

كان قد نجح أخيراً فى عمل ما يكفى من الترييبات والترتيبات والضغوط والوعود، عشر سنوات وهو يسعى إلى ذلك، يسافر، ويتعب، ويضحى، وينفق، ويكتب، وينشر، ويراسل، كل ذلك ليرفع رأس مصر عالياً جداً، ونجح هذه المرة بعد أن كان قد فشل مرتين، ورفع رأس مصر وأفريقيا والعرب عالياً جداً، والنجاح بعد الفشل غير النجاح من أول مرة، له طعم رائع، ربح الفوز ترتفع به إلى حيث الزهو حتى الخفة، ساعده الشراب على ذلك، لم يسرف، فاستطاع أن يتخيل بوضوح حقد زملائه وفرحهم، ومجاملتهم، وتهنئتهم، وتهوينهم من الذى كان، ونفخهم فى الذى كان، وسعادتهم به، وحسرتهم على أنهم ليسوا هو، وقال من موقع الزهو بالواقع أنه قد حذق كل أبجدية الحياة العلمية المعاصرة، وهو يقرّ تماماً أن كل من ينتقد هذه المناصب والمؤتمرات هو إما حاقد أو خائب أو متخلف أو جبان أو كل هذا.

قالت له فى رقة حانية.. "أو ماذا؟".

فانتفض يسألها هل كان صوته مسموعاً وهو يفكر.

فلم تفهم وإنما أشارت إلى الشراب، وأنه كان قد أشار إليها بيده

إلى نوع معين ثم قال: "أو.. وسكّنت، فسألتُه: "أو ماذا؟"، فاعتذر، واختار شراباً بذاته له لون ملتبس، وتبادل الحديث، وردَّ على التهنئة، ولوَّح بالوعود إن شاء الله. إن شاء الله، كله بالمشيئة، ربنا يسهل.

- ٢ -

ليلتها انطلق أثناء عودته إلى الطريق الصحراوي يستنشق هواء نقيا قبل العودة، فانفجر إطار السيارة ليس بعيدا من موقع انطلاقه، انفجر مع أنه جديد جداً، ولم يقف له أى عابر راكب أو راجل، يساعده فيما هو فيه، وكان قد صرف سائقه ل يتمتع بوحده وقيادة سيارته بنفسه مثل زمان، أتم تبديل الإطار بكل مشقة.

حين رفع يديه إلى أعلى ليرى مدى تلوثهما تخلل أصابعه هلال أفل يتوارى، فراح يؤكد لنفسه أنه على صواب دائما، دائما على صواب، وأنه سوف يهب حياته لخدمة العلم والوطن والتخصص و أصحاب الحاجات، وكل الناس.

فخيل إليه أنه لا يصدق نفسه، فاغتم غمّا غير مألوف، ومسح يديه الملوّثتين في جانبي سرّواله (لم يفعلها - هكذا - طوال عمره) وأدار محرك السيارة فلم يدر.

وقرأ قل أعوذ برب الفلق، والغم يزداد تصعيداً بلا مبرر ظاهر. دار المحرك أخيراً.

ولم يتنفس الصعداء !!

- ١ -

مواطن أنا من بلد بعيد.

بعيد فعلاً... جداً فعلاً،

أحاول أن أبعد أكثر فأزدد اقتراباً حتى يتداخل بعضى فى

بعضى، فأجندنى مجتمعا بلا معالم وسط بؤرة ما، بؤرة عميقة

بلا قرار، أنا لست نابعاً منها، ولا راغباً فيها.

مالى أنا؟ لم أعد أحتمل.

- ٢ -

هنا لندن،

خيرُ ما نستهل به إذاعتنا هو تلاوة مباركة من آى الذكر الحكيم،

.....، صدق الله العظيم.

السادسة والنصف وخمس دقائق، نشرة الأخبار الموجزة، السابعة،

التاسعة، العاشرة إلا ربعا، العالم هذا الصباح، شريط

الأخبار، العالم هذا المساء، أقوال الصحف البريطانية، عالم

الظهير، أقوال الصحف العربية الصادرة فى لندن.

ما الذى يجعلنى أتحمل كل هذا؟ لماذا أصر على أن أعاود

الاستماع إلى ما أعرف حول ما يجرى مما أعرف.

زوجتى تكاد تقفز من السيارة كلما سمعت هذا الفاصل الموسيقى

اللندنى بين الأخبار.

أشم رائحة التراب، وروحي لم تطلع بعد.

ذات مرة، حين أوشكتُ على الغرق، كنت أحسب أنها أبشع ميتة،

لكن هذا الغرق الآخر هو الأيشف قاطبة، غرقُ فى تراب لزج

يدفنتنى فيه مسخٌ بشرى لا يكلف خاطره أن يرتدى قناعا ما.

لا يخجل من بشاعته وجبروته، وأنا - الضحية - أخجل له نيابة عنه.

ما كل هذا التعذيب الذاتى؟.

أكتب مقالا يفرّج عني.

- ٣ -

لا أريد أن أكتب حرفا،

أكتب مقالا ينشر فى الأهرام !! أصبحوا يحترمون ما أخط. لماذا؟.

لمن؟ أكتب؟ ثم ماذا؟.

لا أستطيع أن أصمت، أكاد أنفجر.

عدت أتعجّب: لماذا أنا - وليس هو - الذى يشعر بالخجل مما يفعله هو بنا.

- ٤ -

يبدو أن مجرد الاستمرار فى الحياة هو ذنب يستأهل الاستغفار.

- ٥ -

أعاتبه وأنا أستغفر، فأشعر أننى كاذب فى استغفارى،

فأعاتبه أكثر. أذهب للنوم.

أنا أنام مبكرا عادة، حتى هذه الليلة، أستطيع أن أنام مبكرا.

- ٦ -

الأطفال الخواجات المسلمون الشُّقر يختبئون معى تحت الغطاء،
أهددهم لكنهم لا ينامون، لا أستطيع أن أكذب عليهم أو
أطمئنهم، يطلبون أن أحكى لهم حلوّة، لا تحضرنى آية كلمة،

يهربون مني فأقرح حيث لا أعرف كيف أعدّ لهم ما يَأْكُلُون، لم
 بهربوا بل ازدادوا اختباء تحت السرير خوفاً من أن يعود
 القصف، ذهب النوم ولم أجرو أن أناديه.
 حين ذهبتُ إلى دورة المياه وجدتُهم قد أحاطوا بي من جديد، ولم
 يترددوا أن يدخلوا خلفي إليها وهم يمسكون بطرف ثوبي فزعا
 وحيرة.

أو عتاباً ولوماً. لست أنا، مع أنني أشعر بالذنب فعلاً. ماذا أفعل
 هم لا ييكون، ولا هم يضحكون.

- ٧ -

قصيدة فاروق جويذة عن البوسنة جميلة مؤلمة،
 الشعر رائق، مخترق، حارق. مزعج. مفيق.
 ثم ماذا؟

أقول لشيخى إن كتابة مثل هذه القصيدة وأجمل منها هي خيانة
 لهؤلاء الأطفال المشردين، وللنساء المغتصبات، وللشباب تحت
 السادسة عشرة المدفونين أحياء بتهمة أنهم مجرمو حرب !!.

يدهش شيخى، ويصمت شفقة أو حرجاً، لا أعرف. يربت على كتفى
 بيد حانية على الرغم من أنه لم يمد ساعده أصلاً، فأفهم
 إشارته بما أحتاجه ولا أفهم ماذا يعنى، ولا ينفعنى شيء من
 كل هذا.

أى تسكين - مهما بدا رحيماً - هو تغييب خطير.

- ٨ -

أحاول أن أتعلّم من مرضاى.

مرضاى حين يسحقهم الألم يحتمون منه بفقد الشعور واللامبالاة.

أتذكر ما كتبتُه ونشر في الأهرام بعد استشهاد سناء المحيدلى أو بعد ضرب جنوب لبنان، لا أستطيع أن أحدد، كتبت ما معناه: "لماذا يتآلم الناس إذا كان الألم لا يقتلهم ولا يدفعهم إلى القتل (الآن - وليس بعد)؟".

أتذكر ذلك خجلا من جديد وأنا أشعر أنني إنما أكرر نفسى، فأجبنى أكثر ألما وأشد عجزا؟.

عندى عادة كنت أفخر بها، (قال يعنى): باعتبارها دليلاً على أنني أهتم بالناس، ومع ذلك، مع فخرى بها، كنت أدعو الله أن يخلصنى منها، وهى: اختلاط الخاص بالعام.

الحدث العام يدخلنى حتى النخاع، أتقص الظالم وكأنى هو، فأنا مسئول عمّا فعل، وأتقص المظلوم فأشعر بالانسحاق والخزى أنني ما زلت أعيش !!.

- ٩ -

روينشتاين، الحرم الإبراهيمى

نحن الذين قتلناهم وهم سجدوا فى الفجر، نخرّب اقتصادنا، نتهاون، نقصر، نخنع، نتنازل، نؤجل، نحن المجرمون فعلا.

فهل معنى ذلك أن روينشتاين برى؟.

خيبنى الله.

رادوفان كاراجيتشى، طبيب نفسى، أنا طبيب نفسى، ابن الكلب، كان محررا لمجلة علمية اسمها "طب نفس البحر المتوسط"، كنت أكتب لها الموجز باللغة العربية، ابن الكلب.

كل الذى أكتبه الآن عن هذا الموضوع، وربما ما أكتبه عموما، قصة، مقال، بحث، كل هذا لا لزوم له فعلا، لا جدوى منه، ومع ذلك أكتب، وسأظل أكتب من يدرى؟.

الأمم المتحدة، المؤتمر الإسلامي، منظمة العفو، حقوق الإنسان،
التطلب فات فات وفي ذيله سبع لفات.

ولاعزاء للسيدات.

هل هذا وقته؟ !!

كل ما أرجوه من المجتمع العالمي الجدى، بل من محمة العدل
الدولة، ألا يضيعوا وقتهم فى أمور حسومة بفضل القاتل
والمقتول معا، كل ما أرجوه هو أن يوصوا القتلة أن يشحنوا
سيوفهم أكثر حتى يسرعوا فى القتل بدلا من كل هذا الجزّ -
هكذا - بسكين بارد.

أريحونا بالله عليكم، وسوف تجدون رويوتات أحدث تغنيكم عنا.

- ١٠ -

أهرب فى تذكر مصائبنا المحلية، وأصرف انتباهى إلى معاناة
أهلى وناسى الأقربين، أعمق وعى بالإهانة، الإهانات القرية،
أحاول أن أخدع نفسى بادعاء الاهتمام بمعاناة أهلى وناسى،
هم أولى بمشاعرى وفعلى، الفلسطينيون، العراقيون، أهلى فى
الصعيد أولى بى.

لا يا شيخ!!!

وكان قضية الظلم يمكن أن تتجزأ.

- ١١ -

ياسيدى على عزت بيجوفتش:

لم تعجّلت الاستقلال ولم تلحظ مصيدة الإبادة؟.

متى يلغى حق الفيتو فى الأمم المتحدة؟.

متى تلغى الأمم المتحدة؟.

أكره صدام حسين، جداً، جداً. ضببطت نفسى وأنا أدعو له بطول العمر، فعرفت من المسئول عن ذلك.

- ١٢ -

النظام العالمى الجديد...!!، "أ....." "إسكندرانى".

إن من يعيش هذه الأيام، ويصله ما يصلنى، لو أنه يشعر، لو أنه يحس، و لم يجن أو يكفر فليس أمامه إلا القتل الآن وليس بعد.

- ١٣ -

القيم العربية القديمة تبدو تاريخية هزلية سمجة إجارة المستجير!! كذا يا دكتور أحمد يا مستجير؟ "أقتل أسيرك إنى مانع جارى!! لا يا شيخ - ميثاق قوق الغيلان: اقتل جارك وأسيرك وكل من يخالفك، هكذا أضمن.

محكمة العدل الدولية تحتاج إلى مافيا شرعية لتقوم بمهمتها المستحيلة.

أرشق طفلك يا جبان فى رحم ابنتى، جنينا ليس له ذنب حتى لو كان صرييا.

لا أستطيع أن أنتظر. لا أريد أن أعيش.

- ١٤ -

على عزت بيجوفتش:

الإسلام يأخذ اسمه من: "...لحظة مفارقة تنقذ فيها شرارة وعى باطنى.. من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان، من التهيوء لاحتمال كل ما يأتى به الوجود، من حقيقة التسليم لله".

لا يا شيخ؟!!

أنا لا أظلمك يا عم على عزت، أنا لا أشك فيك، إن كلماتك هذه

يستحيل أن تصدر من شخص لا يعنيها، فقط: أنا لست قدرها، أعرف أنك وقومك تتألمون أكثر من ادعائي مليون مرة، فمن أين لي بتلك اللحظة المفارقة؟ وكيف ينقذ وعي الباطن لأسلم لله، وأنا عاجز مقصر مهزوم هكذا أمام هؤلاء القتلة الذين يدفنوننا أحياء، ويقتلوننا بالسلاح والكذب والشعر والديمقراطية والمنظمات؟.

قتلة اليوم يا عم علي يا بيجوفتش، يا عم صلاح يا عبد الصبور، يا سيدنا محمداً صلى الله عليك وسلم، قتلة اليوم: مهذبون، سياسيون، ديمقراطيون، دبلوماسيون، كونجريسيون، وأحرار. جدا...جدا.

- ١٥ -

عزيزي القارىء:

إياك أن تأخذ ما كتبتَه هذا مأخذ الجد. أخشى أن يحدث لك ما هو أنا فيه الآن. أنت مالك أنت حتى تحمل هم كل هؤلاء؟. مالك أنت وما لهؤلاء؟ مالك أنت وما لكل هذا؟. ألا يكفيك ما أنت فيه هنا والآن حتى أحملك هم هؤلاء الخواجات الشقر المسلمين وغير المسلمين؟ حتى أحملك همى.

- ١٦ -

أريد أن أسكت،

"وليتكلم عنى صمتى المفعم".

لا أستطيع أن أسكت.

"لا أملك إلا أن أتكلم:

يا أهل مدينتنا، يا أهل مدينتنا، هذا قولى: انفجروا أو موتوا".

المسألة - يا صلاح يابن عبد الصبور - تخطت أهل مدينتنا.
لم نعد نملك - يا صلاح - حتى أن تنفجر.
الذين ينفجرون يموتون في سياراتهم الملقومة دون ضحايا،
لا يترحم عليهم أحد منهم لأنهم يُصنّفون إرهابيين.

- ١٧ -

نكفر؟
شعرت أنني قاب قوسين أو أدنى.
وحتى هذا، وجدت أنه لا معنى له، ولا فائدة منه.
لا أظن أن الكافر يتألم أقل، ثم إن الكفر مستحيل لمن ما زال حيا
كل ما يمكننا هو أن ندعى الكفر، ثم نفشل في الاستمرار فيه.

- ١٨ -

أنا مواطن من بلد بعيد.
نحن كلنا مواطنون من بلاد بعيدة.
بعيدة جدا.
بلادٍ سوف تنتصر حتما.
مائة
فى
المائة.

- ١٩ -

- كيف؟
- الذى حصل.

اللعبة و الملعوب^(١)

- ١ -

وحدى تماما، مختبئ في شقتي المتواضعة (نجمة ونصف، أو نجمتين بعد التعديل)، هناك في أقصى الجنوب، بين جيران طبيين، مساكن شعبية جميلة، ناسها ليس لهم علاقة بهذه الحكاية، وقد زاد من اطمئناني إلى نجاح خطة هروبي أنه ليس عندي طبق (دش) في هذا المكان البعيد الجميل، "ذهب". الشقة - شديدة الشعبية - تقع بين البحر والجبل، رأيت كيف؟!!! قلبت المطبخ والممر الذي أمامه إلى حجرة تطل على البحر، وجعلت المطبخ الناحية الأخرى، أما الصالة فهي تقبع في حضن الجبل، أحس بالفرق بين ما أكتبه في الصالة في حضن الجبل، وبين ما أكتبه في تلك الحجرة والبحر على مرمى البصر، لا أفضل هذا عن ذلك، لكن لكل روحه ورائحته. عبر النافذة، أرى الشجر يتمايل في نشوة نشطة، لو رأيت نفس حركته هذه في القاهرة لحسبتها العاصفة، ليس عندي طبق فضائي، ولو أنني كنت أنوي أن أفعلها هنا أيضا حتى أواصل مبادءاتي إلى العالم قبل أن يقتحمني هو. زودوا "ذهب" أخيرا بمحطة تقوية جعلت القناة الأولى والثانية متاحة لي ولجيرانى، بمجرد استعمال هوائى (إيريال) داخلى، سوف أحتفل وحدى برأس السنة، ما زلت أذكر ليلتها في باريس، ياه !! كم هي الفرحة معدية شريطة ألا يفسدها السكر البين، ليس عندي مانع أن أحتفل بطريقتي وحدى بالسنة الجديدة، لكن عندي ألف مانع ومانع أن أحتفل ببداية ألفية لم تبدأ بعد، سوف أحتفل وحدى وسط خواجات لا أعرفهم، ولا يعرفونى.

هنا، أشعر أنني أنزل ضيفاً على ضيوف بلدى.

منذ ساعات، وأنا أتناول عشائى، (الذى هو السحور فى واقع الأمر) فى المطعم الصينى الجميل فى العسلة. جاعنى النادل وهمس فى أذنى، وادّعى أنه متعجب كيف يحبني الناس هكذا من بعيد دون معرفة، وأن دليله على ذلك أن أحد الخواجات الجالسين على المائدة المقابلة يعزمنى على شرابٍ ما، صحيح أننى أبالغ فى ما أنفخ هذا النادل بالذات من منح (بقشيش) زيادة عن الحساب، وكأنني أشتري صمته، أو أجهض تساؤلاته، أضمن بذلك أن يتركني فى حالى، ألاحظ أنه يفهم جيداً ما أريد، يبدو دائماً ممتناً مرحباً مجاملاً، لكن ليس لدرجة أن يحيب الناس فى هكذا، أو أن يدعى ذلك، نظرتُ إلى المائدة المشار إليها فوجدت مجموعة من الأجانب الشباب الذين أدعوا لهم عادة بالسعادة الحقيقية، مرة لأننى أتصور أنهم يحتاجون لدعوتى هذه، ومرة لأنه بخيلٌ إلى أن نوع سعادتهم ليست هى، ومرة لأصالح من خالهم كل ما هو خواجة، ومرة لاعتقادي أنني رجل طيب، وأن دعوتى مستجابة، لا أعرف كيف، فلا أستخسرهما فيهم، لا أذكر من الذى قال من الخوجات القدامى: "كن أخى ولا تقتلك"، أما نحن فكنا نغنى أطفالاً "يا احنا ياهمّ يا كوم الريش، همّ يموتوا واحنا نعيش"، لم تكن نغنى الخوجات طبعاً، كنّا نغنى أى همّة. لاحظ من فضلك الفروق الثقافية، لسنا قتلة بطبعنا، كل ما نقدر عليه من عدوان هو أمنية أن يتولى عنا سيدنا عزرائيل المهمة، أما هم، فكُن أخى ولا تقتلك، ياه!!، كلام فارغ هذا وذاك، لا هم قتلة، ولا نحن نتمنى لهم الموت، التنوع البشرى الخلاق!!؟ القبول بالآخر!! لا يا شيخ!!؟ والشيشان؟ أليسوا آخر؟ وأهل

كوسوفو أليسوا "آخر"؟ والفلسطينى فى الداخل، والخارج
أليس آخر؟

يا أخى- إلى أين أنت ذاهب، لا تذهب بعيدا هكذا إلى الناحية
الأخرى، الروس والصرب والصهاينة حاجة ثانية، الدنيا فيها
وفيهما؟ والتاريخ ملئ بالمأسى، ولا يبقى إلا الخير، لست
متأكدًا من ذلك، لكن لعلَّ خيراً، هذه التكنولوجيا المتسارعة
ترفع الحواجز بين الناس بسرعة أكبر من تنامي حقدهم
وعماهم، هل يمكن أن تعمل شيئاً أكبر يذيب التعصب ويرسى
العدل؟ يزيل التعصب يمكن، لكن يرسى العدل !! كيف؟ هل
يمكن أن "تخلّق" لنا آخرين بطريقة أصدق؟ الآخر موجود
ونصف، ألم يقرر العالم هذه الليلة أن يتجاوز تاريخه
الدموى، وأن نلعب معا نحن الناس، كل الناس، هذه اللعبة على
مستوى الدنيا بأسرها؟ لعبة بداية الألفية الثالثة، الألفية التى لم
تبدأ بعد- بدأت أو إن شا الله ما بدأت، كله واحد، لماذا
بدأناها قبل أن تبدأ؟ نحن أحرار، لماذا ننتظر حتى نبدأها فى
وقتها؟ وهل يعرف أحد تحديدا وقت بداية أى شىء؟ الأمور
دائماً تبدأ قبل أن تبدأ، وحين ندرك أنها بدأت تكون قد طابت
وطلبت الأكلة.

لم أصدق النادل واعتبرتُ كلامه من باب المجاملة، إلا أنه عاد
فأصرَّ على إبلاغ الرسالة، مشيراً بتأكيد حار إلى شاب
"خوافة" يبدو ظريفاً وطيباً.

- ٣ -

كنت عندما أحضر إلى هنا أحاول أن أنصت إلى اللهجات من
حولى لأتبين الجنسيات، توقفتُ عن ذلك بعد أن اعتبرت أنهم،

أننا، كلنا أولاد حواء وآدم. فلماذا البحث؟ لا بد أن التراب الذي خلق منه سيدنا آدم كان من هذه الجبال النقية الفتية الجميلة من حولى.

- ٤ -

أنظر إلى المائدة المشار إليها، فإذا بالشاب الذي على طرفها يومئ لى برأسه فعلا، يومئ وهو يرفع ما يشرب إلى أعلى، فأفعل مثله شاكرا، ثم أربت على صدرى بمعنى أننى لا أستطيع أن أقبل كرمه بما عرض من شراب، فيبتسم ويحنى رأسه ثانية فى دماعة دافئة، الله !!!!، هؤلاء الناس بهم دفء خاص بعكس ما أشيع - أنا - عنهم، قلت للنادل إننى لا أعرف هذه الوجوه، فهل يعرفهم هو، قال إن الشاب هو أحد مدربي الغطس هنا، ألمانى على الأرجح، وأن الجلساء ضيوفه أو زبائنه، (لا فرق) وأنه لا بد قد لاحظ كيف أننى أتى أجلس وحدى الأسبوع تلو الأسبوع، وسألنى النادل إن كنت أعمل هنا، ولم أرد، فلم يلح، إذن فأنا أتى وحدى، تعجبت لذلك مع أنى أتى وحدى فعلا، ألسنت أنا الذى أعلنت منذ قليل أننى إنما هربت إلى هنا لأحتفل وحدى، كيف لم أنتبه إلى ذلك بنفس المعنى الذى لاحظته النادل؟ لماذا أتحدث عن وحدتى مع أننى لا أمارسها، أو لعل لا أشعر أننى أمارسها، هل أنا وحدى فعلا؟ لا أظن، الأغلب أننى لست وحدى، كيف؟ لا بد أننى كثير، وابتسمت.

نظرت إلى النادل وإلى المضيف (هكذا اعتبرت - كما أشرت - أنى ضيف هذا الخواجة) ودعوت ألا يكون أحدهما قد سمع ما لم أقله.

- ٥ -

أعود إلى صديقي الحاسوب، كان ينتظرني في أدب وسماح لا تعرفهما الزوجات العصريات، اعترفتُ له أنني هارب وربما كاذب أدعى الوحدة، واكتشفت كيف أن لصديقي الحاسوب هذا، فضل، أو وزر، خفوت وعيى بوحدتى التى لاحظها كل من الخواجة والنادل، معاً!!، كنت قد اقتنيت هذا النوع من الحاسوب حديثاً، وهو نوع به بطاقة تلفاز تسمح بالاستقبال على شاشة صغيرة يمكن إزاحتها إلى زاوية هامشية على ناحية، وكنت قد اعتدت أن أشغل هذه الخلفية أثناء استغراقى فى عملى، وأن أعاود النظر للألوان الصامته أحياناً، أو الإنصات للأصوات الهامسة أحياناً أخرى، أو إغفال هذا وذاك رغم بقاء أى منها فى الخلفية. ثم وأنا فى هذه الحال متصوراً نجاح خطة الهرب المزعوم، وأنا أدعم إصرارى على مقاومة هذه الخدعة الجماعية المسماة الاحتفالية بالألفية، إذا بى أكتشف أن القناة الثانية، التى تصل إلى هذا المكان النائى من خلال محطة تقوية حديثة، تجرني جراً إلى العالم كله، كل الناس اتفقوا أن يلعبوا معاً هذه اللعبة الجماعية هذه الليلة. ليس أمامى خيار، ورائى ورائى، أضطر أن أتابع ما يجرى بجزء من وعيى، أجدنى أتسحب من ورائى لأنضم إلى هذه المليارات من البشر الذين يلعبون، هكذا أكتشف أنني غير رافض ولا حاجة، على الأقل لست رافضاً كما كنت أتصور.

- ٦ -

مباراة كأس العالم فى كرة القدم، كان ذلك منذ أكثر من عامين، لست متأكداً، قفزت فرحاً بالهدف، ليس المهم من أصاب مرمى

مَنْ، الهم أننى جالس أمام التلفاز أشارك ألف مليون بنى آدم نفس الشعور، فى نفس اللحظة هل هذا هو "الحج الالكترونى"؟

-٧-

قبل الفجر، اعتدت آنذاك - منذ عشرين عاماً - أن أقتطف بضعة ساعات أكتب وأقرأ فيها قبل أن تلتقطنى عجلة الواجبات اليومية، أفتح المذياع الصغير، لم يكن إرسال البرنامج الموسيقى متصلاً ٢٤ ساعة كما هو اليوم، ألعب فى المفتاح على الموجة القصيرة، أى دندنة تكفى، تكسر صمت الليل، مع أنى لا أشبع من مناجاته، ورائى ما ينبغى إنجازه قبل وبعد مناجاة الصمت. الموسيقى الخالصة تأتيني، وهى لا تحتاج إلى فك رموزها. الأغانى الغربية ألقاها لا تحتاج بدورها إلى فك شفرتها، أعتبرها ضمن الموسيقى التى لا أفهمها، الأخبار التى تأتيني برطان متدفق أتركها دقيقة، أو أكثر، لا أغير المحطة، أنصت إلى جرس رطان فتحضرنى أسئلة كثيرة عن معتقدات أصحاب هذا الرطان وعن دينهم، وعن مآلهم، وعن رحمة ربنا بى وبهم، أطمئن إلى عدله طمأنينة لا قبلها ولا بعدها، من قال غير ذلك، الله يخيبهم، هذا المذياع الصغير "الترانسستور" يساعد الناس أن تتقرب إلى الله، يقربنا من بعضنا البعض، من ذا الذى يستطيع أن يقاوم؟

أهلا !!!

"أكتب فرحاً":

غَصْبًا صَدَفًا، لَمَسْتُ إصْبَعِي الْمِفْتَاحَ، فَسَرَتْ كَلِمَاتُ عَجْمِيَّةٍ....
تَنْتَزِعُ السِّيفَ مِنَ الْقَمَدِ، تَلْتَهُمُ ظِلَامُ الرُّؤْيَا.

"أكتب أيضاً"

يجتمع السامر من أحباب الله، البيضُ السودُ السمرُ الحمرُ.
البيزقُ والقرزُ ورخُ الشاه

أنهى ما كتبت بانه:

"يتراقص سهمُ الأفق يفتَح وعيى المرتجف الأعشى، فيُريني
العالم.... مذياعاً ملقى، فى حجم الكف، والناس الواحدُ كل
ليس له مثيلٌ أصلاً.

أختم صلاتى قائلًا

"... يتصاعد كدحُ الناس إلى خالقهم جمعاً فى معراج الرحمة".

- ٨ -

أسير فى هذه المظاهرة العالمية وأنا وحدى هكذا فى أقصى
الجنوب، أنتقل غصبا عنى من جزر "الأوكلاند" شرقاً حتى
جزيرة "سماو" غرباً، أنبهر من هذه الألعاب النارية فى
سيدنى، وأرقص مع الراقصين فى هاواى.

يا حلاوة!! لماذا اتفقَ العالم على الاحتفال معا هكذا بألفية لم تبدأ
بعد؟

لا أقصد لماذا، بل كيف؟

كيف أقنع الناس بعضهم البعض أن يغيظوا التاريخ الحقيقى وهم
يحتفلون بما اتفقوا عليه، وليس بما يفرضه عليهم هذا التاريخ
الأعشى؟.

أشعر فجأة أن من حق الناس عبر العالم أن تلعب معا متى شاعت
كيف شاعت، أفرح أننى واحدٌ من هؤلاء الناس.

- ٩ -

هذه الأرقام الأربعة التى تبدأ من اليسار بواحد ثم تسعة تلحّ على
منذ تعلمت القراءة والكتابة ١٩١١-١٩١٩-١٩٣٣-١٩٤٥.

١٩٥٢-١٩٦٧-١٩٧٣-١٩٩٩، لا بد أن كل الناس مثلى، ثم
نمى إلى علمنا - جميعا - أن هذا الشكل اللوح، سوف يتغير،
وماذا فى ذلك؟ يتغير كما يشاء، أنا مالى؟ نحن مالنا، كيف
سيكون منظر التاريخ وأنا أكتبه قبل بداية أى رسالة، كيف
ساكتب الرقم الجديد؟ تحريرا فى كذا شهر كذا سنة ٢٠٠٠،
يا صلاة النبى، سنة مثل كل السنين، لماذا تغمرنى هذه
الدهشة البريئة وأنا أتصور منظر التاريخ الجديد؟ يبدو أن
هذه التسعات اللوح أخذت حقها وزيادة. من يدري؟ بشرى،
تختفى التسعات، ويختفى معها كل ما نريده أن يختفى ليحل
محله ما لا بد أن يحل محله. من يدري؟

من فَمَكِ إلى باب السماء.

ما دامت السنين تجرى وراء بعضها، حتى وصلنا إلى سنة ٢٠٠٠
هكذا فلا بد أن العالم يتغير، لا بد أن شيئا ما سوف يتغير،
ليست المسألة فيما هو ليزر أو غير ليزر، المسألة هى نحن، ما
هذا الليزر؟ طز، لا أريد أن تمتد هذه "الطز" إلى فانتوثانية
زويل، نحن ما صدقنا فرحنا به وبها. كم فانتوثانية مرت بنا
حتى وصلنا إلى هذه السنة ذات الدم الخفيف هكذا؟

ثلاثة أصفار ويجوارها اثنين، منظر طبعاً.

أقاوم أن يسحبونى أكثر من هذا، لا بد أن آخذ حذرى، ليس كل
سحب مثل الآخر، ربما يسحبونى لأشارك بالمرة فى النظام
العالمى الجديد أو فى بورصة نيويورك بقروشى الخائفة قليلة
الخبرة، من يدري؟ حتى لو لم يكن ملعوباً أو مؤامرة، فقد
ضحكنا عليهم، أنا والناس، كل الناس ضحكوا على كل الناس.
فرحنا - نحن الناس - بهذا الرسم الجديد ورحنا نلعب.

- ١٠ -

"أخير".

ألقى بإحدى البليات الثلاث فتقع داخل المثلث بالكاد، فالبلية الثانية، فالبلية الثالثة، أجمعهم وأرصهم، يتقدّم الرقم اثنين فأرداً جذعه مختالا، يميل برقة حانية، يبتسم، أطمئن إليه فأترك البلى بجوار بعضها فى رعايته، لعله يحرسهم.

الخواجات يلعبون بالأصفار الدوائر الكرات مثل رجل السيرك فى مولد السيد البدوى، رقمهم الاثنين بالإنجليزية يهتز على موسيقى الراى، ثم ينتظر رصّتهم أمامه وهو لا يكف عن الرقص.

فيمَ كان اعتراضى إذن على ما اتفق الناس عليه؟

أه! تذكرت، كنت معترضا أن يغالطونا وهم متجهمون يفرضون علينا حساباتهم لمجرد أنهم تورطوا فى فرحة طفلية مثلما أكتشف الآن.

كل ما أطالب به الآن هو أن يعترفوا أنه ليس احتفالا بالألفية الثالثة، ليكن الحفل هو الحفل، لكن فلنسمه حفل وداع الألفية الثانية، وداعا يمكن أن يستغرق عاما بأكمله.

لا يعيننى أن تبدأ ألفية ثالثة أو تنتهى ثانية، ما يغيظنى هو الاستعباط، يعايرونا كل رمضان وكل عيد ويقرصون أذننا أنه "عيب كذا"، وأننا لا بد أن نسمع كلام علم الفلك، يعنى كلامهم، فهم أصحاب توكيل شركات العلم الحديث، فلماذا لم يسمعوا هم الآن كلام علم حساب يحذقه طفل ذو سبعة أعوام. ما الفرق بين أن نحتفل اليوم بألفية لم تأت بعد أو أن نحتفل بها بعد عام أو خمسة، حتى لو أعلنوا أنهم أجّلوا الألفية الثالثة

لتأتى بعد الرابعة، مسموح. كل شيء مسموح ما دمنا نلعب جميعاً معاً، حلوة هذه، فقط علينا وعليهم، شروط أى لعب أن تسرى القواعد "علينا وعليهم" حتى لعبة الحرب، حتى الإجراءات الأمنية على الحدود، علينا وعليهم، أليس كذلك؟

أين الحكم؟

يطل على فيدل كاسترو من الشاشة المظلمة، كنت قد أغلقت الحاسوب والتلفاز معه، تملأ لحيته واجهة النافذة، يمسك ورقة كبيرة يقرأ منها فرماناً سلطانياً، يختفى وجهه ليحل محله وجه فؤاد المهندس، كم هو ثقيل الظل في الاقلام رائع الحضور فى المسرحيات، يعود وجه كاسترو وهو يصيح "والله ما انا لاعب"، فيصفق له مارادونا وينتقلان معاً من شاشة الكمبيوتر إلى الشاشة الصغيرة فى الركن يقفزان من النافذة بون أن تفتح، لست متأكدا من الذى قفز أولاً: فؤاد المهندس أم كاسترو، لم أكن أعلم أن فيدل خفيف الظل هكذا. فيجدان الظلام الدامس، يرعبان.

افتح التلفاز فإذا مذيع صيني يشترط سرا أو علانية، كذا وكيت وأن الرئيس الصينى قد قرر بالنسبة لاحتفال الألفية، واتفاقية الجات معاً، أنه "فيها لآخفيها"، وذلك بعد أن أملى شروطه، ولم ينتظر ليعرف إن كانوا قد قبلوها أم لا. خاف أن تنتهى اللعبة دون أن يحسبوا حسابه، سوف يشترك ويطنبل، ثم يأتى الحساب فيما بعد. ونحن؟

متى نقبض ثمن بسماع الكلام؟

- ١١ -

بسوق النخاسة لتسويق المحترفين، أجور المدربين بعشرات أو مئات الألوف، تتراعى لى حركات الشابات لاعبات القوى،

وأرقام الفوز تُحسَبَ جزء من الثانية.

لم ذاك يا بناتي الحلوات؟ تفوز الواحدة منكن بفارق يصل إلى جزء من عشرة من الثانية؟ هذا ليس لعباً، هذه صفقات (بيزنس).

أى قسوة يسمونها تدريباً؟ وأى منافسة يسمونها لعباً؟ "إخص" اللعب خيال جامح، نشاط حر، فرحة فى ذاته وليس فى نتيجته، معية زائطة، اتزلى يا بنت أنت وهى حتى نرقص ونلعب معاً دون شقاوه. نحتفل معاً بأى كلام، المهم نحتفل بعيداً عن سوق النخاسة ومزادات أجزاء الثانية.

تلك الهيجة البهيجة الراقصة المضيئة لا تعرف من الذى يديرها.

هل يمكن أن نكون قد استطعنا أخيراً أن نلعب هذه الليلة معاً، فعلاً، نلعب بجد.

هل يمكن أن يسمح السادة فى البيت الأبيض أو السراى الصفراء أن يلعب العالم دون إنهم ودون عائد عليهم؟ طبعاً لا، إذن فهو "بيلى".

بيلى من يا جدد أنت، كل حاجة كليبتون، بيلى؟ بطل تفكير تأمرى.

يعنى تريدنى أن أصدق أن ناس العالم الطيبين - نحن - هم الذين قرروا الاحتفال بالتخلص من هذه التسعات اللحوح قبل الهنا بسنة" منهم لأنفسهم؟

والله فكرة !! لماذا، نتنظر عاماً آخر؟

ثم من أدرانا أن الألفية الأولى قد بدأت فى ميعادها؟
إن كل ما هو تاريخ هو مجرد لعبة وثائق خائبة. تُبرر عجز
الإنسان أن يكون كذلك.

- ١٢ -

أين ذهب رفضى؟ كيف ذابت مقاومتي؟ أنا لا أستطيع أن أشارك
فيما ليس لنا، فيما ليس نحن، لماذا نتركهم يقررون لنا متى
بدأ التاريخ، ومتى ينتهى؟ فوكوياما يعلن عن نهاية التاريخ،
وهاهم يذكروننا ببدايته التي قرروها بغير استئذان من
أصحابها، نعم هم الذين فرضوا علينا ما يجرى هكذا، وليس
نحن ناس العالم الذين قررنا أن نلعب سويًا.

- ١٣ -

أدخل متردداً إلى حجرة حضرة الناظر لآخذ إذنًا أن ألعب فى
الخمسة دقائق التى بين الحصص، التى بين العقدين، التى
بين القرنين، التى بين الألفيتين، يصرفنى الناظر وهو يضحك
دون سخرية، أسأل الفراش لماذا كان يضحك حضرة
الناظر، فيخبرنى بإجابتين، الأولى : لأن اللعب لا يتطلب إذنًا،
والثانية: لأنه لا توجد فواصل بين أى وقت وأى وقت.

نحن الذين ابتدعنا الفصل بين أى شىء وأى شىء، كله متصل
بكله، ونحن الذين نوقف الحركة اصطناعاً لتتأمل، ونأمل، لعل
وعسى. من يدري؟

- ١٤ -

أدرك التلفاز الصغير القابع فى زاوية الحاسوب الصباح، فسكت
عن الاحتفال المباح،. فعاولدتني التساؤلات والمراجعة.
يبدو أننى سُرقتُ مثل غيرى، والذى كان قد كان. أحسن.

- ١٥ -

الألفية الثالثة لم تبدأ بعد، والمسألة لا تحتاج إلى مناقشات وإثباتات، لكن للأمر دلالات مطمئنة، ذلك أننا أثبتنا نحن البشر (حلوة هذه) أننا حتى لو استُدرجنا إلى ما لم نقرره، فإن اتفاق الناس أهم من حسبة الأوصياء.
مرة أخرى، "علينا وعليهم".

- ١٦ -

مدرسة رياض الأطفال بالمعادي، كي جي تو، زفتا، بركة السبع، "سلطانية مهلبية، بابا قال لي عدّ لمية، عشرة عشرين ثلاثين اربعين... سبعين ثمانين تسعين مية"، فسنة ألفين ليست هي، فلماذا يعايرونا في مسألة تحديد رمضان والأعياد؟ لماذا نسوا أن اتفاق الناس وتوثيق العلاقة بالطبيعة أهم من أي علم للفلك أو الحساب أو المنطق؟

- ١٧ -

يرفع لي أرسطو^(١٠) حاجبيه فأنهره وأعايره أن منطقته هذا هو الذي أحرّ مسيرتنا نحن البشر ألفتين بالتمام، يلعب لي حواجه وهو يغمز بإحدى عينيه، فأضطر أن أخرج له لسانى، وأنا استغيث بصديقى فون دوماروس^(١١) الذي لا يعرفه أحد، مع أن صديقنا المشترك سلفانو أريتى^(١٢) هو الذي أبلغني وجهة نظره، كان أريتى وقتها يدافع عن منطق المجانين الأعرق مستشهدا بفون دوماروس.

- ١٨ -

أقول لشيخ الأزهر التنويرى الطيب: إن الدين يا مولانا لن ينقص أو يزيد إذا نحن صُمنا يوما زيادة أو يوما ناقصا، إن المهم هو

احترام اتفاق الناس وتوثيق العلاقة بالطبيعة، علينا أن نحافظ على علاقتنا مباشرة بالله سبحانه، وبالطبيعة الأم، بلا وصاية آلات، أو حسابات، ثم ها هو العالم كله يتفق على "أنه" هو ماله؟" (يقصدون أرسطو، أو مرصد حلوان).

يا عم أرسطو، يا سيدنا أرسطو، الله يخرب بيتك.

يا فضيلة المفتي، يا مصطفى يا محمود، إن الناس يا مولانا إذا أجمعوا على خطأ فقد يكون أصوب من أى صواب.

لم لا؟

- ١٩ -

تنتهى الاحتفالات في جزيرة "سماو" فيعاودنى التفكير التأمري الذي هو ليس تأمرى:

من يا ترى هذا الذى ضحك على العالم هكذا، لتحديد هذا الوقت بالذات؟ أقصد من ذا الذى قرر ميعاد اللعب، ومكان اللعب، وطريقة اللعب؟ ليس مهما أن نجد إجابة، وليس لائقاً أن نتهم أمريكا مثلاً - كما اعتدنا - بأنها وراء كل هذا الملعب، المهم أن هذه الشائعة (أن الألفية الثالثة بدأت)، مهما كان مصدرها، قد سرت بسهولة خطرة بين بقاع العالم لمدة عام أو بعض عام (على الأقل)، حتى صدق الناس أنهم يمكن أن يكونوا "معا".

يا عم فهمى يا هويدى، يا دكتور عبد الوهاب يا مسيرى، هم يتحيزون لأفكارهم، وتواريخهم، وآثارهم، وأديانهم، ليكن. أليسوا أحق بنا منا، أكثر الله خيرهم أنهم سمحوا لنا أن نفرح معهم.

- ٢٠ -

تقفز الست موزيكا من الشاشة وجسمها البضّ يملأ فراغ الحجرة كله، زاد وزنها سبعين كيلو جرام فظهرت معالم الزيادة داخل

الملاءة اللف التي لا تعرف كيف تستعملها فتقع منها كل خطوتين وهى تتعثر، فلا أبتسم ولا أشمت، لكنى ألمح سهير البابلى وقد ضربت لكمة فى قسم اللبان^(١٣) حين لم تستطع أن تحكم الملاءة عليها فصاحت فيها " روى كتك نيله وأنا مش عارفه وشك من ظهرك" لم أعرف إن كانت تخاطب الملاءة أم تخاطب مونىكا التى رعبت منها رعباً ليس له مبرر، فاخفتت رغم حجمها ولزوجتها. يا بنت يا سهير لم فعلت ما فعلت؟ أيرضيك أن تتركى لنا هذه القيلة تعلق بقايانا الهامدة، وهى إنسانة خاوية مثل طاحونة مهجورة؟

طيب

الله يسامحك يا سهير يا بابلى.

أنتِ السبب.

فى ماذا؟ لا أعرف.

- ٢١ -

ماذا يا سهير لو أنهم استعملوا نفس الأداة لتسويق وترويج أفكارهم الأخرى، فراحت تسرى بين الناس، كل الناس، بهذه السرعة فصدقوها، صدقناها بنصف وعى، أو حتى بدون وعى، حتى أصبحت أى فكرة يروجونها حقيقة أكبر من أى حقيقة موضوعية.

تقولين أن هذا هو الحادث فعلاً؟ لا يا شيخه؟

يرقص الناس ويفنون معا فى توقيت ليس هو، "قبل الهنا بسنه"، يمر الحال،

هذه المرّة جاءت سليمة، ولعبناها خطأً معا، لكن ما العمل والسائق مجهول، والوقود غير كاف، والأفكار ليست واضحة

ولاجيئة، وكيف نحول دون أن يسربوا لنا أفكارا أخرى تخرّب بيوتنا وعقولنا معا؟ أنا مالي، ننقرض جمعاً كما لعبنا جمعاً. حين تهاجمني فكرة الانقراض هذه، أتصور أنني أمثل النوع البشرى كله، يا ذى الفضيحة، ألا أخجل؟ لكنها حقيقة، حين أتأمل الأفكار المتسربة عن الرفاهية، وعن الديمقراطية، وعن سيدنا العلم الفوقى، وعن الشذوذ الجنسى. أتحسس رأسي، وأهرش في أجزاء خاصة من جسمي، وأتجرع بعض ما تبقى في إناء "المخلل" بعد أن اختفت محتوياته الصلبة، وأمنع نفسي عن التعليق.

- ٢٢ -

أصرخ بالمخرج معذراً أن سامحني، وأنها آخر مرة، كومبارس كومبارس، لكنني مهم في خلفية المشهد، أقسم له أنني لن أفعلها ثانية، يطيب توفيق صالح خاطري، ويطمئني أنني لم أخطئ في اللقطة ولا حاجة، لأنه ليس لي دور أصلاً في هذا الفيلم، يعدني توفيق صالح أن يبحث لي عن دور مناسب في الفيلم القادم، وأعلم أنه يكذب رحمة بي، أشعر أكثر يقينا باقتراب نهاية النوع البشرى كله، مع أننا نحن البشر كان دما خفيف ولا يصح أن ننقرض هكذا بخطأ ما في حسبة البقاء.

لو كان عند الديناصور وعي مستقبل، ربما كان مازال معنا حتى الآن، أخاف منه مثلما كنت أخاف طفلاً أن يلتهمني "وابور الزلط".

- ٢٣ -

مع تسحب هذه السيرة، سيرة الانقراض، ومع هذا الرعب، رعب الفناء بخطأ غبي، يتسرب مني السماح الذى عشته بالرغم منى وأنا أشارك فيما جرى هذه الليلة دون استئذان.

تصورتُنا - فرحا - عبر العالم ونحن نخرج لساننا جماعة لأي رقم فيه رسم تسعة، ثم هأنذا أتراجع عن اعتبارها لعبة فرحت أبحث عن أصل وفصل فاعلها، هل هي فعلا ملعوب وليست لعبة، ملعوب بفعل فاعل، والفاعل قوى ومجهول؟ لا بد أنه فاعل يملك السلاح، والعمال، وكل وسائل الإعلام مما نعرف، وما لا نعرف.

- ٢٤ -

أريد أن أذهب للخواجة الذي عزمي على الشراب أمس في المطعم الصيني وأقبلُ رأسه وأنا أقبلُ دعوته.

- ٢٥ -

لو أن أمريكا وإنجلترا وفرنسا، اتفقوا منذ عام أو بعض عام أن يؤجلوا هذه الاحتفالات سنة كاملة حتى يسايروا العلم والموضوعية، هل كان يجرؤ أى واحد غيرهم أن يعملها؟ هل كانت كوريا أو نيجيريا، أو حتى الهند الذرية تجرؤ أن تحتفل وقتما تشاء؟ تنضم مصر أم الدنيا إليهم، مصر جاهزة للانضمام طول الوقت "سَنَتَتَنَضُّمُ"^(١٤) حالا، دقيقة واحدة، هل كان سيستجيب لنا أحد إذا قلنا أننا سنحتفل مبكرا عاما لمجرد أن سنة ٢٠٠٠ دُمها أخف، ومنظرها أجمل، وأنا زهقنا جدا من حكاية ألف وتسعمائة وكذا هذه، لو حدث ذلك لفتحوا علينا نار السخرية والاتهام بالجهل والتخلف، واتهمونا بقلّة حقوق الإنسان، وقلّة العلم، وقلّة العولمة، والسفالة لكنهم لا يستطيعون أن يتهمونا بقلّة الذرية أو الضعف الجنسي.

- ٢٦ -

أخرج لهم لسانى ولا أجرو على التصريح باتهامهم بالعجز الجنسي مع أنى أعرف الكثير، خلّ الطابق مستور.
أقفل نافذة العالم التكنولوجية التى فرّضتْ علىّ، وأتاحت لى، فرحة المشاركة، وفكر التآمر معا.

- ٢٧ -

أكتب مقالا للأهرام^(١٥) أقول فيه أن المسألة كانت لعبة طريفة، وأننى كنت مخطئاً، وأن من حق الناس فى كل مكان أن تفرح وقتما تريد، حتى لو لم تعرف من ذا الذى يحركها. فقط علينا أن نأخذ الصدر، وأن نتدبر الأمر، وأن نؤكد على هويتنا المميزة، وكلام ماسخ من هذا، كلام أعلم أنه لا يقدم ولا يؤخر. كلام مثل عدمه، لكننى أكتبه، وهات يا واحد اثنين ثلاثة، إبرة الخياطة...

- ٢٨ -

أتساءل عن عدد الذين سوف يقرأون هذا المقال، وعن جدواه، وعن لزومه،

أتجنّب التماذى فى التساؤل، كما أتجنّب محاولة الإجابة.

أخاف لو أننى صدقتُ فى الإجابة أن أمزق ما كتبت.

هل أنا أضحك على نفسى؟ أبرر وجودى بمثل هذا الذى أكتبه. فى حماس طفلى لا يهمد، وكأن أحدا - يهمله الأمر جدا - ينتظره فعلا؟

تصعب علىّ نفسى. أكتشف أنه ليس لى فى الأمر شىء. أحسن.

تصبحون على خير (ما أمكن ذلك).

الهوامش

أفضل، بصفة عامة، ألا يكون العمل الأدبي هوامش شارحة، أو متحفظة، أو مستدركة، أو معتذرة، مع أنني تعلّمت من هوامش ديستوفسكي خاصة، ما جعلني أعتقد أنه لا غنى عنها احتراما للقارئ. فرجحت كفة أن تظهر هوامش هذا العمل، ربما تفسيراً أو تبريراً لبعض ما أشار إليه من متابعات، ونصوص، وأحداث، قد لا تحضر القارئ بسهولة، وخاصة الأصغر سناً.

وأيضاً: لما وجدت هذا النص عصياً عن التصنيف أصلاً، إذ يقع بين المقال والقصة مرة، وبين النقد والحكي والشهادة مرة، بدا لي أن الهوامش تصبح لزومية، وخاصة أن أغلب هذه التجارب كانت مستثارة بأحداث محددة، ومرتبطة بتاريخ معين.

هذا، وقد يكون مناسباً، قبل تقديم هوامش كل جزء، أن أفسّر ابتداء ما عنيته باختيار الاسم "الورطة"، حيث أردت أن أعلن به حيرتي في تصنيف هذا العمل كما ذكرت، خاصة وأنني حين استشرت المعجم، وجدت في لفظ "الورطة" ما يعبر عن حالتي هكذا:

جاء في لسان العرب:

الورطة: كل غامض.

و الورطة: الهلكة

قال أبو عمرو:

إن تأت يوماً مثل هذى الخطّة تلاق من ضربٍ نمير هلَكه

وقال يزيد بن طعمة الخطمي

قدفك المقلة وسط المعترك.

قدفوا سيدهم في ورطة

ولعل في هذا الاستشهاد ما يحذّر القارئ العزيز من أن يأت يوماً مثل هذى الخطّة، حتى لا يجد نفسه مقنوقاً (مثلي) "قدفك المقلة وسط المعترك".

هوامش الجزء الأول

(١) كتبت هذا العمل إثر استقرايات اجتمعت عليّ، ومن ذلك: أولاً: مسئول كبير ينشر في صحيفة كبيرة سلسلة يسميها قصصاً يقول إنه كتبها لما كان عمره ١٩ عاماً وكان أهم نقد وجه إليه هو مجرد نكتة طريفة (قول - أيضاً - إنها سخيّة). وهي أن هذا المسئول ادّعى أنها قصص باكورة من باب التواضع، وأن الحقيقة أنه كتبها هذه الأيام جداً. ثانياً: دعوة من قبل جمعية النقاد المصرية أن أقدم دراسة نقدية لقصة عبده جبير "عطلة رضوان"، فعاشت خبرة في الناحية الأخرى: أرقى وأصعب. ثالثاً: تساؤل شخصي عن: كيف يكتب الكاتب قصة ما؟ ولماذا؟. وهو ما استدعى شهادتي كاتباً، كما ظهرت في النص الحالي.

فخرج هذا العمل الذي لا أعرف له اسماً جامعاً مانعاً، فجمعتني إلى ما أسمىه المقال القصة، حيث يجمع بينهما "العصيان عن التصنيف". من هنا جاءت التسمية الشاملة للجزئين باعتبار أنهما يمثلان ورطة غير مقصودة، مع احتفاظ كل جزء بعنوانه الأصلي.

(٢) إشارة إلى نظرية المثل عند أفلاطون التي تقول ما معناها: إن حقيقة الوجود والموجودات إنما تقع بعيداً عن متناولنا في عالم المثل، وإن ما تدركه ونعايشه ليس إلا تقليد لهذه المثل، وضرب لذلك مثل "السريّر" الذي ينم عليه الذي ليس إلا تقليد للسريّر "المثال" البعيد عن متناولنا.

(٣) د. حسن وجيه، علم التفاوض الاجتماعي والسياسي. سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٩٤.

(٤) الـ "بدون" في الكويت هم فئة ليست قليلة، تقيم في الكويت منذ عشرات السنين، ولكن ليس لهم الحق في الحصول على الجنسية الكويتية، وبالتالي يطلق عليهم الـ "بدون"، أي: "بدون جنسية".

(٥) مقطع من أغنية وردة "بطل نار الغيرة" وأصله "طيب شوف الثانية" وليس الثالثة.

(٦) إشارة إلى ما صار يتروّد عن سيرة فرويد الذاتية وشخصيته وجوعه الشديد إلى التقدير من تلاميذه ومرضاها، وعلاقته بشقيقة زوجته.. الخ.

(٧) إشارة إلى برنامج "قول على قول" للأستاذ حسن الكرّمى الذي (كان) يذاع من لندن، حيث يتوالى القول من التراث على قول السائل في تواتر جميل، دون انحسار مقفّل. وليس إشارة إلى باب ينشر- بنفس الاسم- في الأهرام لكاتب لا يريد أن يتوقف.

(٨) كنت قد أقحمت هذا الجزء داخل المتن فعلاً، ثم انتبهت عند المراجعة إلى أنه بذلك قد أُخلّ بالاتفاق المبدئي، وهو أن تتم القصة "في القطار"، فأنزلتُ إلى هامش سُفلى، ثم فكرت في مسألة الهوامش هذه فنقلته هنا هكذا. وقد تركته بالنص الذي كان مكتوباً به في المتن ليتبين مدى سخف إقحامه، ثم مشروعية حذفه!!! - ومع ذلك لم أستطع إلا أن أثبت في الهوامش، وقد كتبت بشكل آخر، وينط أصغر، حتى لا نقرأه (عزيزى القارئ) كما يلي.

أثناء المراجعة الأخيرة لم يستطع الكاتب أن يقاوم استشارة المعجم، فبدأ "بالوسيط" وهو واثق أنه سيسعفه وتطلع "لظلة" كلمة عربية، فإذا به يفاجأ أنه: لظلت الحية رأسها: حركته من شدة اغتياظها، ولا شيء غير ذلك. وهذه البنت المملظة لا هي حية ولا مختالطة. أنا المختلط، ثم إنها تحرك جسمها كله لا رأسها فقط، فكاد الكاتب يرجع في كل كلامه السابق ويستبدل الكلمة، لكنه استغاث بلسان العرب فأسعفه بشكل أغراء بلعبة التويل المتعسف هذه التي هي في واقع الحال نوع من التخريج المزيف، وهي لعبة يتقنها الكاتب بقاء (مالك؟). فيه ماذا؟ لا تكمل القراءة إذا لم يعجبك، أو انتظر للأخر، يمكن ربنا يسهلها) فقد وجد الكاتب أن من معاني اللطافة: الملازمة، "وأشياء" البنت ملازمة بعضها بعضاً فقد أنشد "بن برى" "الظ به عباقية سرندى، جرىء الصدر منبسط القرين"، والبنت فعلاً جريئة الصدر، وهو شخصياً منبسط (ولا بأس من إضافة القرين، لا يضر) ويوجد أيضاً أن "اللطيف هو الإلحاح"، وحضور البنت الذي هو هكذا، له إلحاح متميز ومتواصل على وعيه وحواسه وكل شيء، ثم إن بشراً قال: "الظ بهن يحلوهم حتى: تبينت الجبال من الوساقي"، وقد قرع بنون النسوة هنا كما لم يفرح بها من قبل، ورغم أن بيت بشر ليس فيه أى معنى من معاني اللطافة ليلي علوى، إلا أن الشطر الأول إذا أخذ بشكل كلي أى جشتالطى فهو إنما يوحى بنفس الجو. "الظ بهن يحلوهم حتى" وليس مهماً الباقي، طبعاً سيقول النقاد إن هذا ليس تناسلاً، وإرد هذا الرأى، لكن الكاتب لم يقل إنه تناسل، هو قال إنه داخل على التناسل، والداخل على الشيء قد يدخله وقد لا يدخله، والاحتمال الأخير يسمى الرباط في ليلة النخلة، ثم إنه يكتب قصة، وليس نقداً، هو يكتب ما يشاء، والنقاد يسمون ما يقرأون بالأسماء المناسبة: تناسلاً، فتيهقه، تنطع، كل واحد ومدرسته، ولا أقول انطباعه: لأن النقاد الانطباعيين ليس لهم مكان الآن في أى شيء، المطلوب من القارئ أن يأخذ راحته، ويتصرف بمعرفته.

(٩) بيان ٣٠ مارس هو البيان الذى أذاعه عبد الناصر فى ٣٠ مارس ١٩٦٨ عقب هزيمة يونيو، والذى انتقلت فيه النغمة من الزعامة الفردية إلى نغمة "الشعب هو القائد" وكأنهم تذكروا، ولكنها كانت ذكرى مصنوعة تحت ضغط الظروف، وسرعان ما تلاشت، هذه النغمة الجديدة التى أدت الواجب حتى سكت الناس، وعلى الرغم من أن جيلى يعرف تفاصيل كل ذلك إلا أنه وجبت هذه الإشارة الموجهة إلى الجيل الأصغر الذى لم يعيش هذه الأحداث.

(١٠) إشارة إلى فوازير نيللى فى رمضان ما، عن المهن المختلفة، تأليف صلاح جاهين والمقطع من فرزرة "الصحفى".

(١١) هذا ما صورّه جاهين فى فرزرة "المهندس" فى رمضان ذاته، إشارة إلى المنازل المصنوعة من الخشب الحبيبي.

(١٢) المقصود هنا هو مرض فقد الشهية العصبي Anorexia Nervosa وهو المرض الذى تخاف فيه الفتيات (والسيدات) من السمّة، فإما أن يكفّن عن الأكل إلا قليلاً جداً، وإما أن يتعمدن القىء بعد الإفراط فى الأكل ثم يتكرر ذلك، وهو المرض الذى قيل إن الأميرة ديانا كانت مصابة به.

(١٣) إشارة إلى كتاب "الشعر والتجربة" تأليف أرشيبالد مكليش ترجمة سلمى الخضراء الجيوشى، وفيه إشارة إلى قصيدة بودلير "جيفة"، وقد ظهر فى طبعة جديدة فى سلسلة آفاق الترجمة (الهيئة العامة لقصور الثقافة)، وقد أشارت المترجمة إلى اقتطاف ترجمة أنونيس لقصيدة بودلير،

التي قال فيها المؤلف " تلك القصيدة المريعة التي يتزوج فيها الموت والجنس في تجانس لا تجانس فيه، تجانس العهر اللاهث والعفن القاتل".

(١٤) ظل هذا المقطع من نهاية زقاق المدق في ذاكرتي منذ الأربعينيات، وحين حضرني هنا شككت لثانية أو اثنتين أنه في رواية "بداية ونهاية" لكنني رجحت متيقناً أنه نهاية زقاق المدق، وهذا المقتطف جاء على لسان الشيخ درويش مدرس الإنجليزى الذى استقال وهام على وجهه، ومشى فى حب الله، وبألفاظ ما جاء فى نهاية الرواية بعد الرجوع إليها:

ثم وحوح (الشيخ درويش) متتهداً واستدرك قائلاً:

.. يا ست الستات، يا قاضية الحاجات، الرحمة، الرحمة يا آل البيت، والله لأصبرن ما حبيت، أليس لكل شىء نهاية؟.. بلى لكل شىء نهاية.. ومعناه بالانجليزية end وتهجيتها، "e, n, d"

(١٥) إشارة إلى رواية نجيب محفوظ "الباقى من الزمن ساعة".

(١٦) فيلم عبر إلى الأبد، قامت بتمثيله لندا دارنل، وقد شاهدته فى أوائل الخمسينيات.

(١٧) قيل فى أحد تفسيرات إطناب ديستوفسكى، واستطاداته المترامية إنه كان مضطراً لذلك تنفيذاً لعقد (أو عقود) إحدى المجلات الأسبوعية، المشترك أن يعطيها عدداً معيناً من الصفحات فى ميعاد محدد، وكان استغراقه فى لعب الميسر يجعله مضطراً للوفاء بالوعد بشكل قهري.

(١٨) هناك نوع من العلاج السلوكى يستعمل مثل هذه الطريقة: وفكرتها أنه بدلا من تجنب المثير المسئول عن بعض المشاعر الدخيلة أو المزعجة، أو غير المناسبة يدفع المريض إلى مواجهته بالتدريج، ويتصعيد محسوب.

من الماثور عن على بن أبى طالب قوله " إذا خفت شيئا ففّخ فيه"، وهو قول يحمل نفس الفكرة.

(١٩) إشارة إلى أن العمليات العقلية التي تلزم فيها درجة عالية من تنشيط التخيل التركيبى الكلى، وفى الوقت ذاته الربط الرمزي المحدد الترابط، هى عمليات، تحتاج إلى عمل نصفى "المخ معا فى نشاط متكامل، (وهذا ما يخص الإبداع عامة) والنموذج هنا فى عمل الفتاة المتمثل فى فك الشفرة أو إنشاء البرامج الجديدة هو من أنق النماذج المعبرة عن هذا النوع من النشاط المتكامل للنصفين الكرويين معا، (أنظر أيضا المقارنة بين عمل نصفى المخ فى الجزء الثانى إن شئت النظر فى الفرق بين المقال القصّة "اللعبة والملعب ص ١٠٥) حيث كانت الغلبة للنصف غير الطاغى مقارنا بالمقال "ماذا بعد ما لعبنا معا" لعبة الألفية" حيث كانت الغلبة للنصف الطاغى (هامش ١٥ الجزء الثانى ص ١٢٨، وما بعدها).

هوامش الجزء الثاني

(١) الاسم المطول الذي نشر به هذا المقال/ القصة في الأهرام هو: "تقرير عن بحث علمي"، كتب في اليوم التالي لمذبحة إسرائيلية جرت في جنوب لبنان، في أوائل الثمانينيات، وقد عُنوت بعنوان فرعي يقول: "مقال في قصة". وهو ما ألهمني جمع هذه المجموعة تحت هذا المسمى.

(٢) إشارة إلى ما قام به الإسرائيليون بعد الحادث من عرض بعض المجاهدين المحتجزين لديهم في أقفاص حديدية مدلاة من طائرات الهليكوبتر، تخويفاً وامتهانا.

(٣) كان ذلك عقب نجاح عميد كلية ما للمرة الثالثة وهو يحاول أن يظهر كل الفرع، وأن يخفي كل الخوف، لكنني لمحتة بون استئذان، فأشفتُ عليه في قسوةٍ وحشيةٍ، بهذه القصة المقال التي نشرت في الأهرام أيضاً.

(٤) إشارة إلى فيلم الجندي سلوفيك الذي كان يمثل البراءة الأقصى لجندي شاب يرفض الحرب، فلا يطيع الأوامر، وحين يحاكم يحاول رؤسائه ومن ملاحه أن يساعده بأن يحفزه إلى إنكار التهمة، لكنه - بنفس البراءة - أصر على قول الحقيقة وأنه لا يفهم لماذا يحارب، من؟ وبالتالي فإنه رفض الأوامر، ثم يحكم عليه بالإعدام، وهو مازال محتفظاً بنفس الدهشة والبراءة.

(٥) مرة أخرى: تَوَكَّبَ قيامي مضطراً بمهمة كتابة تقرير تقييم أبحاث للترقية، مع قراءة خبر استشهاد "سنان المجدلي" بحزام الديناميت في هجمة انتحارية على المحفل في جنوب لبنان.

(٦) كتبت هذه القصة أولاً تحت اسم "الطفلة والرجل" ونشرت في أول عدد من مجلة الإنسان والتطور بتاريخ يناير ١٩٨١ ص ١١٤ - ١١٧، العدد الأول، ثم بعد ما يقرب من عشرين عاماً، حدث التغيير الوزاري الشهير (أكتوبر ١٩٩٩) فوجدت أنها تعبر عن هذا الحدث بدقة جعلتني أغير العنوان هكذا، وأرسلها إلى بعض الصحف، ولم تنشر حتى كتابة هذه السطور.

(٧) كان ذلك قبيل حصوله على ذلك التكريم العالمي الذي يستأهله، بلغته، والذي بدأ أنه لم يؤدّ ما انتظر منه، أو أنه لم يُشبعه، وفي نفس الوقت ظل صاحبي لا يستطع أن يخفي طبيعته، وربما خيبة أمه.

(٨) كتبت هذا المقال أثناء مأساة سيريرينسكا في البوسنة من أربع سنوات، حيث جرى القتل الجماعي، ودفن الأحياء واغتصاب النساء بالجملة، ونشر الأصل باعتباره مقالا في صفحة الرأي في الأهرام، وحين فُكرت في جمع ما هو "مقال في قصة" وجدت من المناسب أن أضمنه المجموعة بعد تعديلات متوسطة، لم أذكر فيها مأساة كوسوفو اللاحقة.

(٩) كتب أصل هذا النص أولاً في شكل مقال نشر في الأهرام باسم "ماذا بعد ما لعبنا معاً لعبة الألفية؟" بتاريخ: ٢٠٠٠/١/١٨. [أنظر هامش ١٥]، ثم أعدت صياغته بعد أن جمعت هذه المادة "هكذا" لتقول نفس المعنى مع السياق الحالي، وقد نشر لاحقاً كما جاء في هذا المتن بعنوان "اللعبة والملعب"، في مجلة سطور العدد ٤٠ مارس ٢٠٠٠.

(١٠) يراجع العالمُ ناقداً فكر أرسطو ومنطق أرسطو بصفة خاصة ومدى إعاقته للتفكير البشري طوال ألفيتين.

(١١) ظهر منطق "فون دوماروس" سنة ١٩٤٧ ليتناقض مع، ويصحح منطق أرسطو ليثبت أن الشيء يكون نفس الشيء وضده في آن... الخ.

(١٢) سليفانو أريتي طبيب نفسي أمريكي مبدع، صاحب كتاب "تفسير القمام"، والمحور الأول للكتاب الأمريكي للطب النفسي في السبعينيات والثمانينيات وهو الذي تبني منطق فون دوماروس ووظفه في فهم لغة القمامى وغائبه ومن ثم فهم "إرادة المجنون واختياراته وموقفه".

(١٣) إشارة إلى مسرحية ريا وسكينة، (شادية وسهير البابلي).

(١٤) إشارة إلى مسرحية مدرسة المشاغبين.

(١٥) مقال الأهرام نشر بعنوان: ماذا بعد ما لعبنا معا لعبة الألفية ١٨/١/٢٠٠٠ وقد رأيت أن أوردته في هذا المأمش بنصه (إلا بضعة سطور) لمن شاء أن يعيش تجربة المقارنة بين ما كتب تحب زعم غلبة نصف الدماغ الكروي الطاغى (مقال الأهرام) في مقابل غلبة النصف الكروي غير الطاغى [مقال بسطور: هامش ٨].

ماذا بعد ما لعبنا معاً لعبة الألفية ؟

[الأهرام ١٨/١/٢٠٠٠]

الثانية، هذا ليس لعباً، هذه صفقات وأكل عيش وتنافس قهري (يزينس)، وإنما يُعرَف اللعب عند علماء النفس والطب النفسي بأنه: نشاط حر، يُعمل لذاته، ولا يُرجى منه - ابتداءً - عائد تفعى واقعى محدد، وهو نشاط مرغوب فيه، لما يعُدُّ به، ويحققه عادة، من فرحة وانطلاق. ويكون هذا النشاط (اللعب) أطيّب وأبهج إذا تم فى جماعة. ليس هذا هو ما حدث بالضبط، هكذا، على مستوى العالم بحثى الصباح فى تلك الليلة القليلة! ألا ينطبق هذا التعريف تحديداً على تلك الهيجة الهائصة التى عمّت الدنيا من جزيرة فوكلاند فى أقصى الشرق إلى جزيرة سماو فى أقصى الغرب؟ عمّت الدنيا بتلقائية منتشرة شاملة، لا أحد يمكن أن يجزم بمصدرها الأوّل

إن أهم وأطرف ما حدث فى هذه المناسبة هو أن العالم كله، قد شارك فى فرحة ما، فى مناسبة ما، فى لعبة ما، لعبة بكل قواعد اللعب، بما فى ذلك أن واحداً يحرز ويقول "والله ما أنا لاعب" (فيدل كاسترو)، وأيضاً أن آخر يتلكأ ويهدد ويشترط، ثم فجأة، يسارع قبل البداية مباشرة أنه: "فيها لاختفيها" (الصين).

لا يشمل تعريف اللعب - نفسياً - تلك الألعاب التى تجرى فى الملاعب أو فى الصالات حيث يبلغ أسعار التنافس وإرهاق التدريب مبلغاً هائلاً من القسوة والاحتراف، يؤكد ويبرر هذا وذاك ما وصلته أسعار اللاعبين وأجور المدربين الفلكية، وكذا مكافآت الفوز، ومقاييس التفوق التى تصل فى بعض ألعاب القوى إلى جزء من عشرة من

سماعه المتراجع، وكئن صلاح يقول مبتسما:
ما دتم مصممين، فلنحتفل مرتين، كما تابعت
الأصوات الزاعقة المتألّمة وهي تتبّهننا إلى
خطورة اختزال التاريخ إلى ما يقرّونه هم
تحديداً، وكئن تاريخ العالم يبدأ حين يقررون لا
أكثر ولا أقل، ولو صغ ذلك، فيمكن أن يمتد
المنطق إلى: ماداموا احتكروا حق تقرير متى
بدأ التاريخ فهم الذين سوف يقررون متى ينتهى
(بدأت ملاحم ذلك فى كتاب فوكوياما: نهاية
التايخ)، فلنخذت بعضى وهريت على بعد ستمائة
كيلومتر من احتفالنا الليزى الخاص.

كنت هناك وحدى تماماً، فى شقتى
المتواضعة بين جيران طيبين، ليس لهم أدنى
علاقة بهذه الحكاية، وزاد من اطمئنانى إلى
نجاح خطة الهروب أنه ليس عندى طبق (دش)
فى هذا المكان البعيد - جنوب سيناء - يمكن أن
يلاحقنى رغماً عنى، إلا أننى وأنا فى عز هربى
مستغرق فى الحوار مع صديقى الحاسوب
(الكمبيوتر) ومربع التليفزيون الصغير يحتل
زاوية هامشية فى الجزء الأعلى الأيسر من
شاشته، كما اعتدت أن أشغل خلفية استغراقى
ببعض ألوانه الصامتة، أو أصواته الهامسة،
أو كليهما. وأنا فى هذه الحال قرأنا بنجاحى فى
الهرب، أدمع إصرارى على مقاومة هذه الخدمة
الجماعية، إذا بى أكتشف أن القناة الثانية،
التي تصل إلى هذا المكان النائى من خلال
محطة تقوية حديثة، تجرّنى جراً إلى العالم
كله، وهو يلعب معاً هذه اللعبة الكوكبية. لم يكن
أمامى خيار، ورائى ورائى، فاضطّرتُ للمتابعة
بجزء من وعيى، ورويدا رويدا وجئتني واحداً
من بين هذه المليارات من البشر الذين يلعبون
هكذا، ووجئتني غير رافض تماماً لما يجرى كما
كنت أتصور، أو كما كنت أصرّ، وأيضاً تذكرت

(انظر بعد)، هكذا اتفق العالم أن يلعب، لعبة
احتفالية الألفية الثالثة، أما كيف كان ذلك؟،
فقد قرأت الحكاية على الوجه التالي:

تصوّنا منذ تعلّمنا القراءة والكتابة، بل
والاستماع، تصوّنا على هذه الأرقام الأربعة
التي تبدأ من اليسار بواحد ثم تسعة،
١٩٠١-١٩١١-١٩١٩ - ١٩٥٢-١٩٦٧-١٩٧٣
حتى ١٩٩٩، ثم نعى إلى علمنا أن هذا الشكل
الاحوج، بما له وما عليه، سوف يتغيّر،
فأصابتنا دهشة طفلية بريئة، صوّرت لنا أنه
ما دام هذا الشكل المتكرر جداً سوف يتغيّر،
فلا بد وأن العالم بالتالى سوف يتغيّر، وخاصةً
ونحن فى مرحلة تنبهننا وتلع علينا أنه: إما
التغيير وإما الهلاك، فقرّرنا، دون مؤامرة، أن
نفرح معاً بهذا الرسم الجديد لأرقام التاريخ،
نفرح فرحة طفل لم يتعلم حتى الكتابة فراح
يفضل منظر رص الأصفار الثلاثة بجوار
بعضها على يمين الرقم اثنين، فرحنا نلعب
بها، ونغنى لها وكئننا نخرج "بلياً" ينحنى لها
رقم اثنين فى تحية نصف نصف، (بالمرية)
أو كئننا نتقاف كرات يتراقص أمامها رقم
اثنين بالإنجليزية، فإذا كان الأمر كذلك، فلا
اعتراض على ما اتفق الناس عليه، حتى لو
أعلنوا أنهم أجكأ الألفية الثالثة لتأتى بعد
الرابعة. خيال اللعب الحر يسمح بذلك، وأكثر.

هذا هو التفسير الذى استدرجتُ إليه
لأفهم وأصالح ما جرى فى تلك الليلة مما
تابعت بالصدفه مضطراً، ذلك أننى فى البداية
كنت رافضاً متحفظاً محتجاً أن استدرج إلى
ما لست موافقاً عليه، أنا لا أستطيع أن أشارك
فيما ليس لنا، وما ليس نحن، وقد تابعت
أصوات التنبية الطيب (صلاح منتصر مثلاً) أن
هذا الحفل سيتم "قبل الهنا بسنة"، كما تابعت

هؤلاء أن سنة ألفين هي المكمل للآلاف الثانية، وليست بداية الثالثة، ولكن الذي حدث لا بد أن يشير إلى قيم ومبادئ أخرى غير هذا الحساب الساذج، قيم ومبادئ لا بد أن توضع في الاعتبار ونحن نتابع ما يدور حولنا، ونحاول أن نشارك فيه أو أن نرفضه، وفيما يلي بعض ذلك:

أولاً: إن اتفاق العالم كله على شكل ما، ورأي ما، ونظام سوق ما، واحتفال ما، وتوقيت ما، لا يعني أن أياً من هذا هو الصواب، ولا أنه هو الأصوب.

ثانياً: يبدو أن ما يُجمع الناس عليه له من الأهمية والجذب والدلالة ما هو في مرتبة الحقائق الموضوعية المجردة، أو أكثر، حتى ولو انطلقت هذه الحقائق من معامل الأبحاث أو من مرادف الفلك.

ثالثاً: إذا كان الأمر كذلك، وكان ما أجمع عليه أغلب الناس قد أدى إلى هذا الاحتفال قبل الهنا بسنة "كما ذكرنا، فلماذا تثار ضدينا نحن المسلمين في كل رمضان، وفي كل عيد، ما يشبه المعايير بأننا ناس غير علميين، وأننا نفضل الخداع البصري الذي يرصد هلالاً لم يولد بعد، يرصده طالب مكافأة، أو منجذب لعاطفة، أو مصاب بهلوسة بصرية، نفضل أياً من ذلك على حسابات الفلك؟ وكم كررت رداً على ذلك أن قياس الدين وتعليماته بما استحدث من علم، وما تعلق من عقلانية، هو إهانة للآتين باختزال أحدهما للآخر، فالدين لا ينقص أو يزيد إذا نحن صُمنا يوماً زيادة أو يوماً ناقصاً، المهم أن يشترك الناس في أمر ما، وأن تظل علاقتهم بالطبيعة، وبالله مباشرة، متجددة، ومحترمة، وذات دلالة، بعيداً عن وصاية الآلات والحسابات التي ينبغي أن تستعمل فيما جعلت له، لا أن تستعمل بديلاً عن علاقة الناس بعضهم ببعض،

ذلك الشعور الذي سبق أن أشرت إليه في هذه الصفحة، حين كنت أشاهد كلس العالم، ويخل هدف ما، في فريق ما، ووجدتني أشارك ألف مليون بنى آدم نفس الشعور، حتى كنت أسمى هذا الذي حدث أنه شيء أشبهه بالحج الإلكتروني، ساعتهما تذكرت خبرة أخرى مرت بي منذ عشرين عاماً، وأنا أصحو قبل الفجر أقتطف بضع ساعات أكتب وأقرأ فيها قبل أن تلقتني عجلة الواجبات اليومية التي لا تتوقف، وكنت أحتاج أن أفتح المذياع الصغير أسمع أي ندنة لا أتابعها، وكنت أفرح حينذاك وأنا أسمع لغات لا أعرفها، وأسأل نفسي في صمت عن معتقداتهم، وعن دينهم، وعن مآلهم، وعن رحمة ربنا بي وبهم، وأطمئن إلى عدله طمئينة غامرة، حتى اعتبرت أن اختراع المذياع "الترانسستور" هذا يساعد على التقرب إلى الله سبحانه، إذ يقرب الناس المختلفين من بعضهم البعض، علوئني كل هذا وأنا أتابع هذه المظاهرة العالمية. وحيداً في أقصى الجنوب، فرحت أشاهد ما يجري، وأنا أعمل ما زلت على الحاسوب، وشاركت الجميع: من أول فرحة الاستراليين، حتى الرقص في هاواي.

ويعد أن أدرك التلفاز القابع في زاوية الحاسوب الصباح، فالظهر، فسكت عن الاحتفال المباح، والقهر، عاودتني التساؤلات والمراجعة: فمن الناحية الموضوعية، لا يختلف اثنان على أن الألفية الثالثة لم تبدأ بعد، والمسألة لا تحتاج إلى مناقشات وإثباتات، فأي طالب في سنة ثالثة ابتدائي يعد من واحد لعشرة، وأي مجموعة أطفال تردد أغنية بابا قسالى عد أُممية: عشرة عشرين ثلاثين أربعين.....خسعين مئة، يعلم أي واحد من

حقيقة موضوعية. هنا ممكن الخطر. فلا بأس أن يرقص الناس ويغنون، وأن يطلقوا الألعاب النارية قبل الهنا بسنة، ولكن الخطر كل الخطر، أن تستعمل نفس الوسيلة، فننلقى ما تبثه إلينا هذه الأنظمة المخترقة القادرة، نتلقاه بنفس التسليم الذي مارسناه في لعبة الألفية، لكنه أمتد إلى أمور جادة، لها آثار باقية، قد تكون ضارة، إلى درجة التهديد بالانقراض (صدقوني)، وأورد هنا بعض الأمثلة لمثل هذه الأفكار التي تتحدى في الانتشار دون سند موضوعي، حتى لو بدت براءة واعدة ورشيقة، وأحيانا مثالية:

(١) فكرة مجتمع الرفاهية كهدف إنساني أسمى، أو أوحده، مع أن الهدف الحقيقي للبشر أعمق وأرقى وأجمل من حكاية الرفاهية هذه. خذ مثلا الكبح إلى وجهه تعالى كدحا لنلاقه. قارن ذلك برفاهية الاستلقاء أمام التلفيزيون، أو رفاهية أمل صيد السمك بعد المعاش.

(٢) فكرة تقديس "سياسة السوق" باعتبار أنها الحل الأمثل لضمان التنافس، ومن ثم خفض الأسعار، ثم لا نرى إلا مزيدا من التنافس، والاحتكار بواسطة الشركات المندمجة، مع تهميش دور الحكومات أمام جشع المؤسسات التي جعلت حركة النقود (لا مسؤولية الاقتصاد) هي الإله الجديد لهذا العصر الفاض.

(٣) فكرة نهاية التاريخ تحت زعم أنه لم يعد هناك مجال لما يسمى الصراع بين الأيديولوجيات والنظم السياسية والاقتصادية، ومن ثم فإن كل ما يقى أمام الإنسان هو أن يضمن أداء بالمنهج المتاح، ليحقق هدف النظام المستنق عليه!! مع أننا - أصحاب المصلحة - لم نتفق بعد على شيء واحد.

(٤) فكرة تقديس المعلومات الجزئية الخارجة من معامل الأبحاث، بمنهج محدود، مع

أو عن علاقة الناس بالطبيعة المباشرة. على شرط ألا يحل رأى الناس محل موضوعية المعلومة، وإنما يتم التكامل بوضع كل منظومة معرفية حياتية في موضعها، وأن تقاس بمقاييسها هي، دون تعميم أو وصاية من أخرى، وأيضا دون تنافر.

وأخيرا: إن الذي يسهل أن يتفق الناس على هذا الخطأ الظريف، وبالتالي أن يلعبوا معا هكذا، هو إنجازات التكنولوجيا المعاصرة، حتى الذين هم حول حد الفقر، أمكنهم أن يشاركوا بالمشاهدة، وبالتقصص المندمش.

خامسا: إن صح أن بعض العالم كان يلعب كل هذا اللعب معا، والباقي يتفرج كل هذه الفرجة، في اتفاق مبني على خطأ ظريف كما ذكرنا، فإنه قد يلزم علينا بعد نهاية اللعبة أن نتساءل: من ذا الذي ضحك على العالم هكذا، لتحديد هذا الوقت بالذات؟ أقصد من ذا الذي قرر ميعاد اللعب، ومكان اللعب، وطريقة اللعب؟ ليس مهما أن نجد إجابة، وليس لا نفا أن نتهم أمريكا مثلا - كما اعتدنا بثاتها وراء كل هذا الملعب، المهم أن هذه الشائعة (أن الألفية الثالثة بدأت)، مهما كان مصدرها، قد سرت بسهولة خطرة بين بقاع العالم لمدة عام أو بعض عام (على الأقل)، حتى صدق الناس أنهم يمكن أن يكونوا "معا"، دون حتى التوقف عند إشكالية التحيز إلى ما يمتلئه القرب أو إشكالية التحيز إلى التاريخ الأحدث، دون التاريخ الأعرق.

إن خطورة الأمر تتمثل في إمكان تسريب أي فكرة - صوابا كانت أم خطأ - حتى تسرى بين الناس، كل الناس، بهذه السرعة، فيصدقونها بنصف وعي، أو حتى بدون وعي، حتى تصبح هذه الفكرة حقيقة أكبر من أي

المتسارعة، واللعب الجماعي الزائط.

إن محاولة التعرف على القوى التي أصبحت تدير دفة العالم - وتزرع الأفكار وتتحكم في الألعاب - سرا وعلانية تقول: إن من يملك ما يكفي من المال والسلاح ووسائل الإعلام يمكنه أن يمسك الدفة سرا وعلانية، وليس أمام الأضعف إلا أن يتبع كلا من الخطأ والصواب دون تمييز دقيق ضاربا تعظيم سلام، زائطا أو راقصا أو مثيراً (مستعملا الليزر)، ولتوضيح ذلك: فلنتصور مثلا أن أمريكا وإنجلترا وفرنسا، اتفقوا منذ يونيو سنة ١٩٩٩ أن يؤجلوا هذه الاحتفالات سنة كاملة حتى يسايروا العلم والموضوعية، فهل كان أى أحد يجزئ أن يحتفل نفس الاحتفال هكذا؟ هل كانت كوريا أو مصر أو نيجيريا، ومعهم الهند الذرية تجزئ أن تحتفل وقيما تشاء؟ رغم أنف السادة "الذين هم". هل كان سيستجيب لنا أحد إذا قلنا إننا نحتفل لأن سنة ٢٠٠٠ دُمها أخف، ومنظرها أجمل، وأن المهم أن نلعب سويا، وأن يتفق الناس.. إلخ؟ هل كان يمكن أن نفعل ذلك في حين قرر الرؤساء الكبار أن يكون الاحتفال سنة ٢٠٠١. إن نصيبنا في هذه الحال لن يكون سوى سيل من السخرية والاتهام بالجهل والتخلف بما يكفينا وزيادة، لكن إذا قال نفس المقولة هؤلاء الكبار الأقوياء الشطار، فكأنه يسكت، ثم يشارك وهو يرقص، وحتى يفرح دون أن يقرر هو لنفسه متى أو لماذا!!

ومن يجزئ أن يقاوم يمكنه أن ينشر مقالا، حتى في الأهرام، وقد يقول نكتة، ثم يستسلم، ويشارك.
ربنا يستر.

أن هذه المعلومات مهما برقت، لا تمثل إلا إحدى قمم جبال المعرفة الظاهرة على سطح محيط وعى الناس. (ملحوظة: القمم الأخرى تشمل: المعرفة الإيمانية، و المعرفة الفنية، أقول المعرفة الإيمانية وليس فقط الاعتقاد الديني، وأيضا المعرفة الفنية وليس فقط الاستمتاع الجمالي بالفن).

(٥) فكرة عبادة الديمقراطية (وخاصة ديمقراطية الإنابة) بغض النظر عن وسائلها ومطابخها.

(٦) فكرة مشروعية الشنود الجنسي لعموم البشر (وأفضليته أحيانا)، باعتباره طبيعة بشرية بديلة.

كل هذه أصبحت أفكارا شائعة ومقبولة. وبعضها مثير. وبعضها مقدس، وأنا لست بصدد مناقشة أى منها الآن، لكن ما أنبه إليه حالا هو دلالة ما حدث، لا من حيث صوابه من خطأ، فقد لعب العالم وفرح، وشاركته مضطرا، وما كان قد كان، وإنما أنا نقاش الأمر من حيث الانتباه إلى خطورة الوسيلة، التي إنفا استعملت لإقحام أفكار ومعتقدات بذاتها فلا بد من الانتباه إلى احتمال الضرر حتى الانقراض، ولنتذكر أن الانقراض قديما كان يتوقف على مسيرة التطور وقوانين الطبيعة، أما الآن فقد يتوقف على من يتحكم في هذه الوسائل المغيرة على وعى وسلوك النوع (نحن البشر)، فالتاريخ لا يحكى لنا تفصيلا عن بداية خطأ أى نوع من الأنواع التي انقرضت، اللهم إلا إشارات إلى عدم تناسب المحيط مع المسيرة التطورية. لكن النوع البشرى يمتلك من الوعي والوسائل ما يمكن أن ينبهه إلى أن المسألة الآن أصبحت تجري في هذا الاتجاه (الانقراضى) على الرغم من الإنجازات

الجزء الأول ... القصة النقد

٩ قصة فى قطار
---	-------------------

الجزء الثانى ... المقال القصة

٦٥ التقرير .. والتوقيع
٧٣ ولو !!!
٧٧ الذراع والحزام
٨٣ دبّرنى يا وزير !!!
٩١ عين وصابت
٩٥ قباب قوسين أو أننى
١٠٥ اللعبة والملعوب
١٢٥ الهوامش:
١٢٦ هوامش الجزء الأول
١٢٩ هوامش الجزء الثانى

كتب للمؤلف

- ١- حياتنا والطب النفسى
١٩٧٢ دار الغد للثقافة والنشر
- ٢- حيرة طبيب نفسى
١٩٧٢ دار الغد للثقافة والنشر
- ٣- عندما يتعزى الإنسان
[صور من عيادة نفسية]
١٩٧٢ دار الغد للثقافة والنشر
- ٤- المشى على الصراط [ج ١] (الواقعة)
١٩٧٧ دار الغد للثقافة والنشر
- ٥- المشى على الصراط [ج ٢] (مدرسة العراة)
١٩٧٨ دار الغد للثقافة والنشر
- ٦- أغوار النفس
[شعر بالعمامة فى العلاج النفسى]
١٩٧٨ دار الغد للثقافة والنشر
- ٧- مقدمة فى العلاج الجمعى
١٩٨٧ دار الغد للثقافة والنشر
- ٨- بسر اللعبة
[المتن شعراً : سيكوياثولوجى]
١٩٧٨ دار الغد للثقافة والنشر
- ٩- دراسة فى علم السيكيوياثولوجى
[شرح على المتن (٨)]
١٩٧٩ دار عطوة (القاهرة)
- ١٠- حكمة المجانين [طلقات من عيادة نفسية]
١٩٨٠ دار الغد للثقافة والنشر
- ١١- دليل الطالب الذكى فى علم النفس والطب النفسى الجزء الأول:
[محاورات: فى علم النفس]
١٩٨٠ دار عطوة (القاهرة)
- ١٢- دليل الطالب الذكى فى علم النفس .. والطب النفسى الجزء الثانى:
[محاورات موجزة عن الأمراض النفسية]
١٩٨٠ دار عطوة (القاهرة)
- ١٣- دليل الطالب الذكى فى علم النفس .. والطب النفسى الجزء الثالث:
[محاورات موجزة: فى الإنسان والطب عامة]
١٩٨٢ دار عطوة (القاهرة)
- ١٤- أفكار وأسماح حول القصر العينى
١٩٨٢ دار عطوة (القاهرة)
- ١٥- البيت الزجاجى... والثعبان [شعر]
١٩٨٣ جمعية الطب النفسى التطويرى
- ١٦- قراءات فى نجيب محفوظ
١٩٩١ الهيئة العامة للكتاب

- ١٧- مثل وموال (قراءة نفسية) دار الهلال ١٩٩٢
- ١٨- مراجعات في لغات المعرفة دار المعارف ١٩٩٧

كتب أقدم : تقليدية (مشتركة)

- ١٩- Psychology in Medical Practiry [مشترك] El-Nasr Modern Bookshop ١٩٦٥
- ٢٠- مبادئ الأمراض النفسية [مشترك] مكتبة النصر الحديثة ١٩٦٥
- ٢١- تمرير الأمراض النفسية [مشترك] مكتبة النصر الحديثة ١٩٦٥
- ٢٢- علم النفس تحت المجهر [مشترك] دار الكتب العلمية ١٩٦٨
- ٢٣- A. B. C. of Psychiatry [مشترك] El-Nasr Modern Bookshop ١٩٧١

صدر حديثاً: (الأعمال المتكاملة)

- ٢٤- رباعيات ورباعيات [دراسة مقارنة : جاهين - الخيام - بسود] مركز المحروسة ٢٠٠٠
- ٢٥- الناس والطريق [١] من تداعيات السيرة الذاتية [من تداعيات السيرة الذاتية] مركز المحروسة ٢٠٠٠
- ٢٦- هيا بنا نلعب يا جدي بسويا مثل أمس . [٢] مركز المحروسة ٢٠٠٠
- ٢٧- ورطة قلم . [٣] مركز المحروسة ٢٠٠٠
- ٢٨- الجدلية الحيوية وتبض الإبداع. [٤] مركز المحروسة ٢٠٠٠

تحت الطبع: (الأعمال المتكاملة)

- (٢٩) الناس والطريق [٢] . مركز المحروسة
- (٣٠) استلهام من مواقف مولانا النقيري [بالاشتراك مع د. أيهاب الخراط] مركز المحروسة
- (٣١) المشي على الصراط [ج ٢] مركز المحروسة
- [ملحة الرحيل والعود]. مركز المحروسة
- (٣٢) روافد المعرفة والثقافة العلمية. مركز المحروسة
- (٣٣) في النقد الأدبي (٢) إدوار الخراط [يقين العطش]. فتحي غانم [الأقبال]. وآخرون. مركز المحروسة

٢٠٠٠ / ٤٢٢٥	رقم الإيداع
I.S.B.N 977-313-036-3	الترقيم الدولي

ورطة قلم



... حين قورتُ الظهور بعد أن اقتربت الساعة. جمعتُ قصصى القصيرة التى نشرت والتى لم تنشر، فوجدت بينها قصصاً أقرب إلى المقال. كما نظرت فى بعض مقالاتى فوجدتها مقالات أشبه بالصور القصصية.

ثم نظرت فى "قصة قصيرة-طويلة!!" أسميتها "قصة فى قطار"، فوجدت أنها تقع بين القصة والنقد والسيرة الذاتية. وإذا بها ورطة لم أعرف كيف أو إلى ماذا ستنتهى.

وقد وصلنى من كل هذا بعض ملامح ما أسموه -فى الأغلب!- الكتابة عبر النوعية، وهو ما أحب أن أسميه "الكتابة العصية على التصنيف".

فجمعتها فى هذا العمل الذى أرجو -عزيزى القارئ- أن يكون لك رأى فيه، هذا هو المهم.

المهندس